

mktbtypdf.com

حبيبى وولده

نسالز ديكنز

ترجمة \ شوقى رياض السنورسى

الكتاب أنتاج (**جدران المعرفة**) للنشر المجانى والتطوعى ...
للمساهمة معنا : Theknowledge_walls@yahoo.com

الفهرس

الفصل الأول دُمبى وولده

الفصل الثانى بعد الجنازة

الفصل الثالث خسارة بول الثانية

الفصل الرابع نظرة سريعة على منزل مس توكس ،
وأحوالها العاطفية

الفصل الخامس التقدم التالى لبول ، ونموه ، وشخصيته .

الفصل السادس سول جلى فى مازق .

الفصل السابع بول يعرف قيمة المال .

الفصل الثامن مدرسة الدكتور بلمبر .

الفصل التاسع أعمال المكتب .

الفصل العاشر بول يعود الى منزله .

الفصل الحادى عشر ما كانت تقوله الأمواج دائماً .

الفصل الثانى عشر الأب والبنت .

الفصل الثالث عشر والتر يرحل بعيداً .

الفصل الرابع عشر وجوه جديدة .

الفصل الخامس عشر أنباء جديدة عن العم سول .

الفصل السادس عشر أدث المتكبرة .

الفصل السابع عشر تغييرات فى المنزل .

الفصل الثامن عشر قبل الزواج .

الفصل التاسع عشر الزفاف

الفصل العشرين أنباء عن تحطم سفينة .

الفصل الواحد والعشرون الزوجان السعيدان .

الفصل الثانى والعشرون حفلة تدشين المنزل .

الفصل الثالث والعشرون مسز ماكستينجر تجد كابتن كتل .

الفصل الرابع والعشرون علاقات منزلية .

الفصل الخامس والعشرون انفصال .

الفصل السادس والعشرون مستر كاركر ، الوكيل الموثوق
به .

الفصل السابع والعشرون هروب أدث .

الفصل الثامن والعشرون هروب فلورنس وأكتشاف عجيب

الفصل التاسع والعشرون صديق صادق

الفصل الثلاثون الهارب

الفصل الحادى والثلاثون..... زفاف آخر

الفصل الثانى والثلاثون لجزاء .

الفصل الثالث والثلاثون ما قد يذكر قبل الزواج

الفصل الرابع والثلاثون الأنعطاف

الفصل الخامس والثلاثون النهاية

الفصل الأول

(دمبى وولده)

جلس دمبى فى ركن الحجرة التى أظلمت على كرسى كبير
ذى مساند بقرب الفراش . أما ابنه فكان راقداً على سرير
صغير أمام النار ، وقد أُلِف فى غطاءه الدافئ .

وكان دمبى فى العام الثامن بعد الأربعين من عمره أما ابنه
فكان قد ولد منذ ثمان وارعبن ودقيقة فحسب ، وكان دمبى
أصلعاً يميل الى الأحمرار . وكان حسن المظهر ، قوى البنية
، بيد أنه كان قاسياً ذا كبرياء وخيلاء فى مظهره .

ولقد كان حينئذ سعيداً بالحادث الذى ظل ينتظره ردىاً طويلاً
من الزمن .

قال مستر " دمبى " لزوجته : سوف تصبح الشركة مرة
أخرى يا مسز دمبى ، ليس فقط هذا الأسم ولكن فى الحقيقة
والواقع أيضاً شركة (دمبى وولده) ...دمبى وولده !

وأثارت هذه الكلمات عاطفة مستر دمبى كثيراً حتى أنه أضاف
كلمة (ياعزيزتى) الى اسم مسز دمبى . ولم يكن معتاد أن
يفعل ذلك ، ولهذا قال فى تردد :

- مسز دمبى ،يا ...عزيزتى .

واحمر وجه المرأة المريضة فى عجب ودهشة .

- سوف ندعوه بول يا ...يا مسز دمبى ، طبعاً .

فأجابت فى ضعف " طبعاً " ثم أغلقت عينيها مرة أخرى .
- " أنه أسم أبيه ، يا مسز دمبى ، واسم جده ! ليت جده حتى
اليوم " . ثم قال مرة أخرى : "دمبى وولده " فى نفس اللهجة
السابقة تماماً .

وكانت الكلمات الثلاث تعبر عن أهم فكرة فى حياة مستر دمبى
. لقد ارتفع ، كابيع من قبله ، من مركز الابن الى دمبى فى
اسم الشركة (دمبى وولده) . وكان قد تزوج منذ عشرة أعوام
، ولكن حتى هذا اليوم ، كان لم يخلف أطفالاً – أطفالاً ذوى
أهمية .

كان قد انجب بنتاً فى حوالى السادسة عشر من عمرها من قبل
. وكانت هذه البنت قد دخلت الى الحجرة للتو فى هدوء . ولكن
ماذا كانت قيمة فتاة لشركة دمبى وولده ! .

وكان مستر دمبى راضياً فى هذه اللحظة حتى أنه استطاع أن
يتحدث فى رقه الى أبنته ..فقال لها" يا فلورنس ، أظن أنه
يمكنك الذهاب والنظر الى أخيك الجميل . ولكن لا تلمسيه ! " .

وتطلعت الطفلة فى حدة الى السترة الزرقاء والرابط الأبيض
المنشئ . وكانت هذه بالإضافة الى زوج من الأحذية يحدث
جلبة فى السير ، وساعة تدق فى صوت عال ، هى الأشياء

التي تكون فكرتها عن الأب . ولكن عينيها تحولتا الى وجه أمها في الحال ، ولم تتحرك أو تجب .

وفي اللحظة التالية ، فتحت السيدة عينيها ورأت الفتاة التي جرت نحوها . وتعلقت بأمها في حب عظيم .
"يا الله " قال مستر دمبى ، وقد نهض غاضباً " هذا سلوك غير مناسب بالتأكيد . سوف أنزل الى الدكتور بيس " . ثم أضاف قائلاً وهو يقف برهة أمام النيران " أرجوك أن تولى هذا السيد الصغير عناية خاصة يا مسز بلوكت " .

اجل يا سيدى بالتأكيد ، وأجاب الممرضة " أذكر أنه عندما ولدت الأنسة فلورنس"

" نعم ..نعم " قال مستر دمبى وهو ينحنى على الفراش .

" ولكن هذا أمر مختلف . أن على هذا السيد الصغير أن يؤدي رسالة محترمة! " ثم رفع إحدى يدي الطفل الى شفتيها وقبلها . ولكنه لم يلبث أن غادر الحجرة مهرولا ، خشية أن تنال هذه الفعلة من كرامته وأعتداده بذاته .

وكان الدكتور باركر بيس يسير جيئة وذهاباً فى حجرة الاستقبال وقد عقد يديه خلف ظهره .

- " حسناً يا سيدى " قال الطبيب فى صوت عميق رنان :
" هل تجد أن صحة زوجتك العزيزة قد تحسنت بعد زيارتك لها ؟ " .

وكان مستر دمبى لم يفكر الا قليلا فى زوجته المريضة حتى أنه لم يستطع الأجابة على ذلك السؤال . وعندئذ قال أنه يسره أن يتفضل الطبيب بزيارة مسز دمبى فى الدور العلوى مرة اخرى .

" حسناً ! لا يجب أن نخفى عنك يا سيدى " ، ثم تابع الدكتور باركر بيس " أن على زوجتك أن تبذل جهداً كبيراً لكى تشفى . واذا لم تستطع مسز دمبى أن تبذل هذا الجهد بنجاح ، فأن ازمة ما قد تقع " .

وكان مستر دمبى يعرف أنه سوف يغدو حزيناَ جداً لو ماتت زوجته . أن حزنه سوف يكون حقيقياً ولو أنه لن يكون عميقاً جداً .

وانقطع حبل أفكار مستر دمبى بدخول سيدة متوسطة العمر ، تتزين على نمط الفتيات ، لم تلبث أن لفت ذراعيها حول عنقه وهى تقول :
" يا عزيزى بول ! أنه دمبى تماماً " .

" حسناً ، حسناً ! " أجاب اخوها – لأن مستر دمبى كان أخاها – " أعتقد أنه يشبه العائلة . ولكن ماذا عن (فانى) نفسها ; كيف حال فانى ؟ " .

" يا عزيزى بول " ، أجابت لويزا (لا شئ بالمرّة . هناك ضعف ما . ويلزمها بذل شئ من الجهد ، ولكنها شوف تبذله حين تعرف أن ذلك واجبها) . " .

وأتبعته هذه الكلمات بطريقة خفيفة على الباب . ثم قال من
الخارج فى أدب بالغ :

" مسز تشك ، كيف حالك الآن يا صديقتى العزيزة ؟ " .

" يا عزيزى بول " ، قالت مسز تشك " أنها الأنسة توكس ،
صديقتى الخاصة " .

وكانت هذه السيدة ذات وجه طويل نحيل شاحب اللون . وكان
لها صوت بالغ النعومة ، كما أنفها حادة مستقيمة .

" أن التعرف على مستر دمبى لهو بالتأكيد شرف كنت أنتظره
طويلا " - قالت مس توكس . غير أن مستر دمبى كان قد
أستدعى الى خارج الحجرة على عجل فى تلك اللحظة . ولم
تلبث أخته أن صاحت قائلة عندما عاد :

- ماذا يا عزيزى بول ! أنك تبدو شاحباً جداً ! أيجاد فى الأمر
شئى ؟ .

يخزننى أن اقول يا لويزا أنهم يقولون أن (فانى)
" والآن يا عزيزى بول " . قالت أخته وهى تنهض ، " لا
تصدق هذا الأمر . هيا معى الى الطابق الأعلى " . وتبعها
مستر دمبى فى هذا الحال الى غرفة زوجته المريضة.

وكانت السيدة مستلقية على فراشها ، وقد أمسكت بأبننتها
الصغيرة بشدة .

" لقد كانت قلقة بدون الفتاة الصغيرة " . همس الطبيب لمستر
دمبى .

وساد وجوم كئيب حول الفراش .

" فانى يا عزيزتى " ، قالت مسز تشك " هاك مستر دمبى قد
اتى ليرالك ، ألا تتكلمين معه ؟ " .

ولم تنبس المريضة ببنت شفه .

وأنحنى الطبيب ، وهمس فى أذن الطفلة . ولم تفهم الطفلة
معنى لهمسه ، وتحولت اليه بوجهها الشاحب وعينيها الداكنتين
. غير أنها لم تترك أمها .
وعاود الطبيب الهمس .
" ماما " . قالت الطفلة .
وأستيقظت الأم لبرهة وجيزة . وارتعشت جفناها ، وظهرت
أبتسامة باهتة على وجهها .
" ماما " صاحت الطفلة بصوت عال : " يا حبيبتى ماما ! يا
حبيبتى ماما ! " .

وهكذا أنطلقت الأم، وهى تحتضن طفلتها ، فوق البحر المظلم
المجهول الذى يحيط العالم بأسرهماتت مسز دمبى .

الفصل الثامن

(بعد الجنازة)

عندما أنتهى المأتم ، امر مستر دمبى أن تغطى أثاث المنزل ، وتركت جميع الغرف ، عدا تلك النى كان يستعملها فى الدور الأرضى .. عارية من التحف والزينة .

والغرف التى كان يشغلها مستر دمبى كانت تتألف من غرفة للجلوس ، ومكتبة كانت تستخدم فى الواقع كغرفة لأرتداء الملابس ، وغرفة زجاجية لتناول طعام الإفطار . وكانت الغرف الثلاث تؤدى كل منها الى الاخرى . وفى الصباح ، عندما كان مستر دمبى يجلس الى مائدة الإفطار ، وبعد الظهر ، حين كان يحضر لتناول الغداء ، كان الجرس يدق لأستدعاء (بوللى رتشاردز) المربية الى الغرفة الزجاجية حيث كانت تسير جيئة وذهاباً مع بول الصغير .

وفى ذات يوم ، بينما كانت رتشاردز جالسة فى غرفتها الخاصة ، فتح الباب ببطء وهدوء ، ونظرت فتاة ذات عينين داكنتين الى الداخل .

- أنها مس فلورنس فد عادت من منزل عمتها دون شك .
" ظننت رتشاردز التى كانت لم تر الفتاة إطلاقاً من قبل - هل هذا هو أخى ؟ " سألت الطفلة وهى تشير الى المولود الصغير .

- أجل يا جميلتي " ، أجابت رتشاردز ، " تعالى وقبليه
" . ولكن الطفلة لم تأت ، بل نظرت الى رتشاردز في
جد وقالت :

- " ماذا فعلت بماما ؟ " .
- ياله من سؤال حزين ! . قالت رتشاردز " هل أنا التي
فعلت ؟ لا شئ يا أنسة " .

- " ماذا فعلوا بماما " ، سألت الطفلة ؟
- " يا حبيبتي ، قالت رتشاردز " أنت ترتدين هذا
الرداء الأسود الأنيق تذكر ألامك " .
- أننى أستطيع أن اذكر أمى ... أجابت فلورنس والدوع
فى عينيها ، " فى أى رداء أرتديه " .

كانت الطفلة رقيقة هادئة فى حزنها وانفرادها ، وكان قلبها
مشحوناً يحب كثير لم يبد على أحد أنه يريده ، حتى ان قلب "
بوللى " أفهم بالحزن عندما تركت بمفردها مرة أخرى .

وحاولت "بوللى " أن تفكر فى طريقة ما لابقاء فلورنس
الصغيرة معها . ولم تلبث أن سنحت لها الفرصة لذلك فى نفس
الليلة .

فلقد أستدعيت للنزول الى الغرفة الزجاجة كالمعتاد ، وسارت
فيها وهى تحمل الطفل الصغير جيئاً وذهاباً لفترة طويلة .
وبعدئذ نهض مستر دمبى فجأة ووقف أمامها .

- مساء الخير يا رتشاردز ..كيف حال السيد بول ؟ .
- فى خير حال يا سيدى .

ولكنها ترددت فجأة ، حتى أن مستر دمبى وقف ينتظر ما سوف تقول ، بعد أن كان قد تحول بعيدى عنها .

- أعتقد أنه ليس أجدى على الأطفال لجعلهم مرحين
مبتهجين من رؤية الأطفال آخرين يلعبون بجوراهم ، قال
بوللى :

- إذا كنت تظنين حقيقة أن هذا مفيد للطفل ، قال
فى غضب " اين مس فلورنس ؟ " .
- ليس هناك من هو أفضل من مس فلورنس ، يا
سيدى .

ولما أتت فلورنس الصغيرة فى وجل وتردد ، توقف مستر
دمبى عن السير جيئة وذهابى ، ثم تطلع نحوها . ولو كان قد
نظر اليها حينئذ بأهتمام أكبر وبعين الأب الحنون ، لكان قد
فهم لماذا أجفلت وترددت . لقد كانت لديها الرغبة القوية
العارمة فى أن تبدو أليه وتلتصق به وهى تصيح " يا أبتاه ،
حاول أن تحبنى " . ولكنها كانت تخشى أن يردها خائبة .. على
أن مستر دمبى لم يكن يدري شيئاً من ذلك .

- " أدخلى .. أدخلى " قال مستر دمبى " مما تخاف الطفلة
؟ " .

ودخلت الطفلة ، غير أنها وقفت الى جوار الباب .

- " تعال الى هنا يا فلورنس " ، قال والدها ببرود : هل
تعرفين من أنا ؟ .

- " نعم يا بابا " .
- أليس لديك ما تقولينه لى ؟ .

وقفت الدموع فى عيني الطفلة . ونظرت الى أسفل ، ومدت له
يدها المرتعشة .

- " هيا ... هيا....كونى بنتى طيبة ...هيا اذهبي الى
رتشاردز " .

ولما حان الوقت للصعود الى الدور العلوى مرة أخرى ،
أرادت بوللى أن ترسل فلورنس الى الغرفة الداخلية لتقول
لوالدها " ليلة سعيدة " قبل الذهاب الى الفراش . ولكن الطفلة
كانت خجلة وغير راغبة فى الذهاب .

- " أوه كلا ، كلا ، أنه لا يريدنى ! " صاحت الطفلة ، ثم
لم تلبث أن اختفت قبل أن تتلقت صديقتها المتواضعة
حولها مرة أخرى .

الفصل الثالث

(خسارة بول الثانية)

وفى يوم يعتمد بول ، امر مستر دمبى رتشاردز أن تأتى اليه.

- لقد قمت بواجبك على وجه مرض رتشاردز فى خلال ستة شهور التى قضيتها معنا ..ثم تابع مستر دمبى " ولقد كنت افكر كيف أودى لك خدمة صغيرة . ولهذا فأننى أعد الترتيبات لأرسال أبنك الصغير لأحدى المدراس الخيرية حيث سوف يتسلم زياً خاصاً يرتديه ويتلقى قدراً طيباً من التعليم . "

- أننى شاكرة لك جداً يا سيدى . وفى تلك اللحظات أرتسمت أمام عينيها صورة أبنها (بايلر رتشاردز عندما عادت الى غرفة الأطفال .

- أذن فلسوف أخبرك بما تفعلين يا ميز رتشاردز ... (أجابت نيبير) التى كانت تتولى أمر العناية بفلورنس " أذهبى لتريه حتى يهدأ خاطرك " .

- قد لا يحب مستر دمبى ذلك – أظن انك لا تستطيعين سؤاله ؟ . قالتها لها بوللى .

- كلا يا مسز رتشاردز ..وتباعت سوزان " ولكن أنا
ومس فلوى سرنا أن نصحبك هذه المهمة فى الصباح
الباكر " .

ولم تكن بوللى راغبة فى قبول تلك الفكرة بادئ الأمر ، اذ
كان محظوراً عليها رؤية بيتها وأطفالها . غير أنها لم تلبث أن
قبلت اقتراح (نيير) ظناً منها أنه لن يكون هناك ثمة ضرر
كبير فى الوقوف الى باب بيتها برهة صغيرة . وهكذا خرجت
أربعتهم ، ومن بينهم بول الى منزل رتشاردز ، الذى كان
يستقر فى جزء فقير جداً من أجزاء مدينة لندن .

وعندما اكتشفت النسوة أن بايلر ليس فى المنزل ، صممن
على الذهاب والبحث عنه . وبعد مسيرة ساعة ، رأت بوللى
متبوعاً بواسطة جماعة من صغار لأوباش يسخرون من زيه
المدرسى . وللتو ناولت المرأة السيد دمبى لسوزان ، وجرت
لأنقاذ ابنها التعس .

والمفاجأت ، كالنائب ، نادراً ما تأتى فرداى ..ذلك أن (
سوزان نيير) المنذهلة ووديعتيها (أى بول وفلورنس)
سرعان ما أنقذوا بواسطة بعض الواقفين فى الطريق من تحت
عجلات عربة مارة قبل أن يعرفوا ما حدث لهم ، وفى تلك
اللحظة (وما كان اليوم هو يوم السوق) أنطلقت صيحات
عالية تقول " أحذروا الثور المجنون " .

وحدث هرج و اضطراب شديدان ، وجرى الناس فى كل اتجاه
وهو يصحيون ، وصاحت فلورنس فى فرغ وجرت بعيداً حتى

تقطعت أنفاسها . ولما توقفت ، وجدت الرعب يجتاحها أنها أصبحت منفردة تماماً .

- سوزان ! سوزان ! . صاحت فلرونس " أوه ، أين هم ! أين هم ! " .
- " أين هم ؟ " قالت امرأة عجوز ، أنت تعرج ناحو الفتاة بأقصى سرعة ممكنة لها " لماذا جريت بعيداً عنهم ؟ " .
- " لقد تولانى الفرغ . وظننت أنهم معى ، أين هم ؟! " .

أما المرأة العجوز ، وقد كانت تتدعى باسم مسز بروان الطيبة . فقد تناولت الفتاة من يدها وقالت " سوف أريك " . وكانت شمطاء قبيحة الشكل جداً ، ذات حلقات حمراء حول عينيها ، وترتدى ملابس رثة .

- وقالت لها السيدة العجوزة " لا داعى لأن تنزعجى الآن ، تعالى معى " . كانت ممسكة بيدها ، وهى تقول لها ذلك .

واستدار فى شارع ضيق قذر . ووقفت المرأة العجوز أمام منزل صغير عتيق . ودفعت الطفلة أمامها فى غرفة خلفية بها كوم كبير من الخرق من مختلف الألوان ، ولكنها عارية من الأثاث ، وذات حوئط سوداء تماماً .

وآرتعدت الطفلة خوفاً حتى أنها لم تستطع الكلام ، وبدت كأنها على وشك الأغماء .

- " لا تثيرى غضبى " ، قالت مسز بروان الطيبة " اذا لم تفعل ذلك ، فلن اؤذيك . ولكن اذا فعلت فسوف أقتلك ، والآن اخبرينى من أنت ؟ " .

واخبرتها فلورنس بقصتها . وانصتت مسز بروان فى اهتمام حتى أنمت الفتاة كلامها .

- اذا فاسمك دمبى ...ها ؟ . وتابعت مسز بروان " أننى اريد هذا الفستان الأنيق وهذه القبعة وهذا القميص . هيا ! أخلعى هذه الأشياء

وأطاعت فلورنس الامر بأسرع ما استطاعت يداها المرتعشتان .

- " أحم " قالت مسز بروان ، وهى تتطلع الى جسد الطفلة الصغيرة " أننى لا أرى شيئاً اخر سوى الحذاء . لابد وأن آخذ الحذاء يا مس دمبى .

وبعد ذلك قدمت المرأة العجوز لفلورنس بعض الملابس القديمة من أسفل كوم الخرق ، وأمرتها بأرتدائها . ثم أخبرتها بأنها سوف تأخذها الى شارع عمومى تستطيع الطفلة فيه أن تسأل عن أصحابها . وحذرتها العجوز من الذهاب مباشرة الى منزلها ، وأمرتها بالتوجه الى مكتب والدها فى المدينة ، وبالأنتظار عند ركن الشارع حتى تدق الساعة الثالثة . ثم هددتها بالانتقام اذا لم تتبع أوامرها .

وما أن دقت الساعة الثالثة ، حتى سارت فلورنس فى طريقها بأقصى سرعتها . وكل ما كنت تعرفه عن مكاتب أبيها أنها بأسم (دمبى وولده) وانها توجد فى المدينة . وتعبت الفتاة من السير ، وكانت مرتعبة من الضوضاء ، وقلقة بخصوص أخيها والمربيتا ، ومرتعدة لما حدث لها . ووقفت مرة أو مرتين فى الطريق لتجهش بالبكاء .

وبعد ذلك بساعتين عصرى ، اتت الفتاة الى مرسى الى جانب النهر ، حيث كانت تلقى صناديق وطرود عديدة .

- " أخبرنى لو سمحت : هل هذه هى المدينة ؟ " .
- فأجابها رجل بدين " أنها المدينة " . ثم وضع يديه فى جيبه " أنت تعرفين ذلك جيداً ..هيا ابتعدى عن هذا المكان ! ليس لدينا ثمة ما نعطيه لك " .
- " اشكرك . أنا لا أريد اى شئ سوى أن أعرف طريق مكاتب شركة دمبى وولده " .
- " يا جو " صاح الرجل منادياً رجل اخر : " أين ذلك الشاب الذى يتبع شركة دمبى والذى يلاحظ شحن السفن ؟ ناده " .

وعندئذ ظهر غلام مرح ضاحك ، وجرت فلورنس اليه .

- " لقد ضللت الطريق وتهت بعيدي ، هذا الصباح . أن اسمى فلورنس ...ارجوك ..أرجوك ان تعتنى بأمرى لو سمحت ! " .

وأنفجرت الفتاة فى البكاء . وفى نفس الوقت وقعت قبعتها
القديمة وانسدل شعرها على وجهها . أما (والتر جاى) الصغير
فقد تحرك فيه شعور الاعجاب الشديد حتى أنه لم يستطع
الكلام .

- " لا تبكى يا مس دمبى " . وأكمل والتر " يا له من شئ
رائع لى أن اكون الآن فى هذا المكان . أنت الآن فى أمان
، أوه لا تبكى "

وهكذا قاد والتر الفتاة بعيداً عبر الشوراع ، وقد بدا سعيداً جداً
، حتى وصلا الى باب (سول جلز) ، عم والتر الذى كان
يشتغل صانع أدوات للسفن .

- " كيف حالك يا عم سول ! " . صاح والتر وهو يقتحم
الدكان " هاك مغامرة رائعة . هذه أبنة مستر دمبى ، وقد
تاھت فى الشوراع واخذت ملابسها امرأة عجوزة شريرة
." .

فربت العم سولومون جلز على رأس فلورنس ، ورجاها أن
تأكل وتشرب ، وذلك قدميها بمنديله بعد أن دفأه على النار .
وعندئذ غلب فلورنس النعاس فنامت أمام المدفأة .

وفى خلال تلك الأثناء ، كان والتر قد ذهب الى منزل مستر
دمبى .

" أوه . عذراً يا سيدى . أننى سعيد بأن اقول أن كل شئ على
ما يرام يا سيد دمبىلقد وجدت مسز دمبى ! .

" أسمعين هذا يا فتاة ! . مستر دمبى موجه كلامه الى سوزان
" خذى ما يلزم ، وأذهبى فى الحال مع هذا الشاب لأحضار
مس فلورنس الى المنزل . أما أنت يا جاى فسوف أكافئك غداً
".

وأحدثت عودة الطفلة الضائعة انفعالا طفيفاً فى جو المنزل .
ورتشاردز فقط المذنبه ، هى التى تلقتها بالترحاب والدموع ،
وقد أنحنت فوق رأسها الصغير كما لو كانت تحبه حقاً .

- " أن هذه المرأة مطرودة " صاح مستر دمبى : "
سوف تغادرين هذا المنزل يا رتشاردز جزاء اخذك أبنى
الى أماكن مريضة مرعبة . أما عن الحادث الذى وقع لمس
فلورنس فى الصباح فأنى اعتبره حادثاً سعيدى طيباً من
ناحية ما . فلولاء لما أستطعت أبداً أن اعرف أفعالك
الطائشة " .

وتحركت بوللى نحو الباب ، وفلورنس ممسكة بردائها ، وهى
تبكى لفراقها فى صورة محزنة ، وتتوسل إليها الا تذهب .

وبكى ابن مستر دمبى كثيراً فى تلك الليلة ، **لانه قد فقد أمه**
الثانية .

الفصل الثالث

(خسارة بول الثانية)

وفى يوم يعتمد بول ، امر مستر دمبى رتشاردز أن تأتى اليه .

- لقد قمت بواجبك على وجه مرض رتشاردز فى خلال ستة شهور التى قضيتها معنا . ثم تابع مستر دمبى " ولقد كنت افكر كيف أودى لك خدمة صغيرة . ولهذا فأنى أعد الترتيبات لأرسال أبنك الصغير لأحدى المدراس الخيرية حيث سوف يتسلم زياً خاصاً يرتديه ويتلقى قدراً طيباً من التعليم . "

- أننى شاكرة لك جداً يا سيدى . وفى تلك اللحظات أرتسمت أمام عينيها صورة أبنها (بايلر رتشاردز عندما عادت الى غرفة الأطفال .

- أذن فلسوف أخبرك بما تفعلين يا ميز رتشاردز ... (أجابت نيير) التى كانت تتولى أمر العناية بفلورنس " أذهبى لتريه حتى يهدا خاطرك " .

- قد لا يحب مستر دمبى ذلك - أظن انك لا تستطعين سؤاله ؟ قالتها لها بوللى .

- كلا يا مسز رتشاردز .. وتباعت سوزان " ولكن أنا ومس فلوى سرنا أن نصحبك هذه المهمة فى الصباح الباكر " .

ولم تكن بوللى راغبة فى قبول تلك الفكرة بادئ الأمر ، اذ كان محظوراً عليها رؤية بيتها وأطفالها . غير أنها لم تلبث أن قبلت اقتراح (نيير) ظناً منها أنه لن يكون هناك ثمة ضرر كبير فى الوقوف الى باب بيتها برهة صغيرة . وهكذا خرجت أربعتهم ، ومن بينهم بول الى منزل رتشادرز ، الذى كان يستقر فى جزء فقير جداً من أجزاء مدينة لندن .

وعندما اكتشف النسوة أن بايلر ليس فى المنزل ، صممن على الذهاب والبحث عنه . وبعد مسيرة ساعة ، رأت بوللى متبوعاً بواسطة جماعة من صغار لأوباش يسخرون من زيه المدرسى . وللتو ناولت المرأة السيد دمبى لسوزان ، وجرت لأنقاذ ابنها التعس .

والمفاجأت ، كالنائب ، نادراً ما تأتى فرداى ..ذلك أن (سوزان نيير) المنذهلة ووديعتيها (أى بول وفلورنس) سرعان ما أنقذوا بواسطة بعض الواقفين فى الطريق من تحت عجلات عربية مارة قبل أن يعرفوا ما حدث لهم ، وفى تلك اللحظة (وما كان اليوم هو يوم السوق) أنطلقت صيحات عالية تقول " أحذروا الثور المجنون " .

وحدث هرج واضطراب شديدان ، وجرى الناس فى كل اتجاه وهو يصحيون ، وصاحت فلورنس فى فرغ وجرت بعيداً حتى تقطعت أنفاسها . ولما توقفت ، وجدت الرعب يجتاحها أنها أصبحت منفردة تماماً .

- سوزان ! سوزان ! . صاحت فلرونس " أوه ، أين هم ! أين هم ! " .

- " أين هم ؟ " قالت امرأة عجوز ، أنت تعرج ناحو الفتاة بأقصى سرعة ممكنة لها " لماذا جريت بعيداً عنهم ؟ "

- " لقد تولانى الفرغ . وظننت أنهم معى ، أين هم ؟! " .

أما المرأة العجوز ، وقد كانت تتدعى باسم مسز بروان الطيبة . فقد تناولت الفتاة من يدها وقالت " سوف أريك " . وكانت شمطاء قبيحة الشكل جداً ، ذات حلقات حمراء حول عينيها ، وترتدى ملابس رثة .

- وقالت لها السيدة العجوزة " لا داعى لأن تنزعجى الآن ، تعالى معى " . كانت ممسكة بيدها ، وهى تقول لها ذلك .

واستدار فى شارع ضيق قذر . ووقفت المرأة العجوز أمام منزل صغير عتيق . ودفعت الطفلة أمامها فى غرفة خلفية بها كوم كبير من الخرق من مختلف الألوان ، ولكنها عارية من الأثاث ، وذات حوئط سوداء تماماً .

وأرتعدت الطفلة خوفاً حتى أنها لم تستطع الكلام ، وبدت كأنها على وشك الأغماء .

- " لا تثيرى غضبى " ، قالت مسز بروان الطيبة " اذا لم تفعل ذلك ، فلن أوذيك . ولكن اذا فعلت فسوف أقتلك ، والآن اخبرينى من أنت ؟ " .

واخبرتها فلورنس بقصتها . وانصتت مسز بروان فى اهتمام
حتى أنمت الفتاة كلامها .

- اذا فاسمك دمبى ...ها ؟ . وتابعت مسز بروان " أننى
اريد هذا الفستان الأنيق وهذه القبعة وهذا القميص . هيا !
أخلعى هذه الأشياء

وأطاعت فلورنس الامر بأسرع ما استطاعت يداها
المرتعشتان .

- " أحم " قالت مسز بروان ، وهى تتطلع الى جسد
الطفلة الصغيرة " أننى لا أرى شيئاً اخر سوى الحذاء .
لابد وأن آخذ الحذاء يا مس دمبى .

وبعد ذلك قدمت المرأة العجوز لفلورنس بعض الملابس
القديمة من أسفل كوم الخرق ، وأمرتها بأرتدائها . ثم أخبرتها
بأنها سوف تأخذها الى شارع عمومى تستطيع الطفلة فيه أن
تسأل عن أصحابها . وحذرتها العجوز من الذهاب مباشرة الى
منزلها ، وأمرتها بالتوجه الى مكتب والدها فى المدينة ،
وبالانتظار عند ركن الشارع حتى تدق الساعة الثالثة . ثم
هددتها بالانتقام اذا لم تتبع أوامرها .

وما أن دقت الساعة الثالثة ، حتى سارت فلورنس فى طريقها
بأقصى سرعتها . وكل ما كنت تعرفه عن مكاتب أبيها أنها
بأسم (دمبى وولده) وانها توجد فى المدينة . وتعبت الفتاة من
السير ، وكانت مرتعبة من الضوضاء ، وقلقة بخصوص

أخيها والمربيّتا ، ومرتعدة لما حدث لها . ووقفت مرة أو مرتين فى الطريق لتجهش بالبكاء .

وبعد ذلك بساعتين عصرى ، اتت الفتاة الى مرسى الى جانب النهر ، حيث كانت تُلقى صناديق وطرود عديدة .

- " أخبرنى لو سمحت : هل هذه هى المدينة ؟ " .
- فأجابها رجل بدين " أنها المدينة " . ثم وضع يديه فى جيبه " أنت تعرفين ذلك جيداً ..هيا ابتعدى عن هذا المكان ! ليس لدينا ثمة ما نعطيه لك " .
- " اشكرك . أنا لا أريد اى شئ سوى أن أعرف طريق مكاتب شركة دمبى وولده " .
- " يا جو " صاح الرجل منادياً رجل اخر : " أين ذلك الشاب الذى يتبع شركة دمبى والذى يلاحظ شحن السفن ؟ ناده " .

وعندئذ ظهر غلام مرح ضاحك ، وجرت فلورنس اليه .

- " لقد ضللت الطريق وتهت بعيدي ، هذا الصباح . أن اسمى فلورنس ...ارجوك ..أرجوك ان تعتنى بأمرى لو سمحت ! " .

وأنفجرت الفتاة فى البكاء . وفى نفس الوقت وقعت قبعتها القديمة وانسدل شعرها على وجهها . أما (والترجاي) الصغير فقد تحرك فيه شعور الاعجاب الشديد حتى أنه لم يستطع الكلام .

- " لا تبكى يا مس دمبى ". وأكمل والتر " يا له من شئ رائع لى أن اكون الآن فى هذا المكان . أنت الآن فى أمان ، أوه لا تبكى "

وهكذا قاد والتر الفتاة بعيداً عبر الشوراع ، وقد بدا سعيداً جداً ، حتى وصلا الى باب (سول جلز) ، عم والتر الذى كان يشتغل صانع أدوات للسفن .

- " كيف حالك يا عم سول ! " . صاح والتر وهو يقتحم الدكان " هاك مغامرة رائعة . هذه أبنة مستر دمبى ، وقد تاهت فى الشوراع واخذت ملابسها امرأة عجوزة شريرة . "

فربت العم سولومون جلز على رأس فلورنس ، ورجاها أن تأكل وتشرب ، وذلك قدميها بمنديله بعد أن دفأه على النار . وعندئذ غلب فلورنس النعاس فنامت أمام المدفأة .

وفى خلال تلك الأثناء ، كان والتر قد ذهب الى منزل مستر دمبى .

" أوه . عذراً يا سيدى . أننى سعيد بأن اقول أن كل شئ على ما يرام يا سيد دمبى لقد وجدت مسز دمبى ! . "

" أسمعين هذا يا فتاة ! . مستر دمبى موجه كلامه الى سوزان " خذى ما يلزم ، وأذهبى فى الحال مع هذا الشاب لأحضر مس فلورنس الى المنزل . أما أنت يا جاى فسوف أكافئك غداً . "

وأحدثت عودة الطفلة الضائعة انفعالا طفيفاً في جو المنزل .
ورتشاردز فقط المذنبة ، هي التي تلقتها بالترحاب والدموع ،
وقد أنحنت فوق رأسها الصغير كما لو كانت تحبه حقاً .

- " أن هذه المرأة مطرودة " صاح مستر دمبى : "
سوف تغادرين هذا المنزل يا رتشاردز جزاء اخذك أبنى
الى أماكن مريضة مرعبة . أما عن الحادث الذى وقع لمس
فلورنس فى الصباح فأنى اعتبره حادثاً سعيدى طيباً من
ناحية ما . فلولاء لما أستطعت أبداً أن اعرف أفعالك
الطائشة " .

وتحركت بوللى نحو الباب ، وفلورنس ممسكة بردائها ، وهى
تبكى لفراقها فى صورة محزنة ، وتتوسل إليها الا تذهب .

وبكى أبى مستر دمبى كثيراً فى تلك الليلة ، لانه قد فقد أمه
الثانية .

الفصل الرابع

(نظرة سريعة على منزل
مس توكس ، وأحوالها العاطفية)

كانت مس توكس تعيش فى منزل صغير مظلم كان قد أقحم
على حى راقى فى الطرف الغربى من المدينة . وكان هذا
المنزل يقف متواضعاً مستخدماً فى أحد أركان الشارع الفخم
، والبيوت الضخمة من حوله تطل عليه من عليائها فى برود
واستهزاء .

وكان هناك منزل خاص اخر بالاضافة الى منزل مس توكس
فى نفس المكان . وكان يعيش فيه رجل اعزب ، صارم
المظهر ، ازرق لون الوجه . يعمل ضابط برتبة ميجور .
وكانت مس توكس والميجور يتبادلان الصحف والكتب فى
بعض الأحيان .

وعلى الرغم من أن الميجور باجستوك كان قد تعدى منتصف
العمر ، الا انه كان فخورى جداً بالاعتقاد أن مس توكس واقعه
فى حبه .

وهذا الميجور كان على أية حال رجلاً أنانياً . وكان لا يتوصّر
اطلاقاً انه من الممكن أن يتجاهله أى شخص ، ولا سيما اذا
كان هذا الشخص هو مس توكس .

ومع ذلك ، فإن مس توكس ، على ما يبدو كانت قد نسيتها . فإن شيئاً أو شخصاً آخر قد أستحوذ على ما كان من اهتمامها .

- صباح الخير يا سيدتى .قال الميجور عندما قابل مس توكس فى الشارع ذات يوم .
- صباح الخير يا سيدى .
- لم اسعد الأنحاء لك فى النافذة منذ وقت طويل طويل .

وأحنت مس توكس رأسها ، ولكن فى برود شديد ، ثم قالت :

" لقد كنت مشغولة جدى فى الأيام الاخيرة . أن وقتى مكرس كله تقريباً لبعض الأصدقاء الحميمين . وأخشى الا يوجد لدى وقت لأضاعته الآن أيضاً . عم صباحاً يا سيدى ! " .

وبينما اختفت مس توكس ، وقف الميجور يتطلع نحوها وقد غمقت زرقة وجهه .

على ان تغيرات أخر كانت قد وقعت أيضاً . فإن الميجور استطاع أن يرى وهو واقف فى ظل غرفته الخاصة ، أن منزل مس توكس قد اكتسى حلة من الرونق والنظام لم تكن تبدو عليه من قبل .

وفوق كل ذلك ، كانت مس توكس قد شرعت حينئذ فى ارتداء ملابس الحداد الخفيف فى عناية فائقة . أن هذه الملاحظة الاخيرة ساعدت الميجور فى الوصول الى تعليل يريحه من حيرته وانشغال باله .

فلقد استقر ظنه اخيراً على أنها قد ورثت مالا واصبحت لذلك متكبرة متعجرفة .

وفى اليوم التالى مباشرة لاستقرار الميجور على هذا الزعم ، رأى الرجل شيئاً غريباً فى غرفة استقبال مس توكس الصغيرة ، بينما كان جالساً يتناول طعام افطاره ، حتى انه تسمر عجباً الى كرسيه . ولم يلبث أن هرع الى الغرفة المجاورة ، وأتى بنظارة المسرح ذات العدسات القوية ، واخذ ينظر من خلالها لعدة دقائق .

- (أنه مولود صغير .) قال الميجور وهو يخاطب نفسه .

وتملك الرجل دهشة عارمة . ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يصفر ويحلق . ويوماً بعد يوم ، كان هذا المولود يعاود الظهور فى غرفة مس توكس ، مرتين وثلاث واربع فى الأسبوع . وفى كل مرة كان الميجور يعاود الصفير والبلحقة .

والأهتمام والحرص اللذان كانت مس توكس ترعى بهما هذا الطفل الصغير ، وتؤدى واجباته ، وتطعمه ، وتلعب معه ، كان عظيمين ومبالغاً فيهما . وفى نفس الوقت كانت المرأة تنظر بعاطفة فياضة الى سوار أعطاه لها مستر دمبى فى حفلة تعميد بول ، كما كانت تتطلع فى عافطة فياضة الى القمر . ولكن أيا كان اخذت تنظر اليه: الشمس او القمر أو النجوم أو السوار ، فأنها لم تعد تنظر الى الميجور . أما الميجور فلم يستطع أن يفهم شيئاً من الامر .

- سوف تكسبين تماماً قلب أخى بول ، يا عزيزتى ...قالت
مسز تشك ذات يوم .

وشحب وجه مس توكس .

- ان شبهه بأبيه بول يقوى ويزداد كل يوم .

ولم تعط مس توكس جواباً آخر سوى أن اخذت بول الصغير
فى ذراعيها وقبلته .

- (وأمه ، يا عزيزتى) . قالت توكس " الا يشبهما فى
شئ ما ؟ " .

- كلا على الإطلاق .. أجابت مسز تشك .

فتأوهت مس توكس فى عمق .

- أنت ايها الملاك ! صاحت مخاطبة بول الصغير " أنت
يا صورة من أببك ؟ " .

ولو كان الميجور قد عرف كم من الآمال والأفكار تستقر على
رأس ذلك الطفل الصغير ، لكان حقاً قد تفرس فى عجب شديد .

الفصل الخامس

(التقدّم التالى
لبول ، ونموه ، وشخصيته)

وأنقل بول من المهد الى مرحلة الطفولة ، وأضحى يتكلم ويمشى ، ويتجول هنا وهناك . غير أن كل ما تلقاه من عناية ورعاية لم يفلح فى جعله ولدى قوياً كان رقيقاً بطبيعته وربما كان قد شعف اكثر من الحزن بعد طرد مربيته .

وهكذا كبر بول حتى شارف لخامسة من عمره . وكان ولدى صغيراً جميلاً ، على الرغم من وجود علائم للحزن والتعب على وجهه الصغير . وكان يبدو مرحى لغوباً كالأطفال فى بعض الأحيان ، ولكن فى أحيان أخرى كان يتخذ صورة غريبة من السكون والتفكير العميق لا تتلاءم وسنه الصغير . وكان يبدو فى تلك الخال بنوع خاص ، عندما كان يجلس الى المدفأة مع والده بعد العشاء .

وفى إحدى تلك المناسبات ، وبعد ان ظل ، هو هو ابواه صامتين تماماً لفترة طويلة ، قال بول الصغير :

- بابا ، ماهى النقود ؟
- الذهب ، والفضة ، والنحاس . الجنيهاات ، الشلنات ، البنسات ! انت تعرف ما هى ! .
- اوه نعم .. انا اعرف ما هى . وتابع بول " أنا لا أقصد ذلك يا أبى .. أنا اعنى ما هى النقود بعد كل هذا ؟ أقصد ماذا تستطيع أن تفعل ؟ " .

وكم كان وجه الطفل يبدو عجوزاً وهو يرفعه نحو وجه والداه

- سوف تعرف ذلك فى المستقبل يا رجلي ..وتابع مستر دمبى " النقود ، يا بول ، تستطيع أن تفعل بها اى شئ "

- اى شئ يا بابا ؟

- أى شئ .

- لماذا لم تُبق النقود أمى لى ؟ . أنها ليس قاسية ، أليس كذلك ؟

- قاسية ؟كلا الشئ الطيب لا يمكن ان يكون قاسياً .

- اذا كانت النقود شئ طيباً ، وتستطيع ان تفعل اى شئ ...فلماذا لم تبق لى أمى ؟

وأخذ الطفل يكرر هذه الفكرة بصوت عال ، كما لو كانت فكرة قديمة لديه ، قد شغلت باله كثيراً .

ولما أفاق مستر دمبى من دهشته وفزع (لانه هذه كانت المرة الأولى التى تحدث فيها ولده عن أمه) اخذ يشرح للطفل كيف أن النقود ، على الرغم من كونها قوة هائلة ، لا تستطيع أن تبقى الحياة على الناس .

- " وهى لا تستطيع كذلك أن تجعلنى قوياً وفى صحة

جيدة تماماً ، هل تستطيع يا أبى ؟ " .

- لماذا ؟ أنت قوى وفى صحة جيدة تماماً ...اليس كذلك ؟

- فلورنس اكبر منى سنأ . ولكننى لست قوياً صحيحاً
كفلورنس ، أننى اعرف ذلك . كم أننى احس أحياناً
بالتعب الشديد ، كما أن عظامى تؤلمنى .
- أه ، ولكن هذا يحدث بالليل . - ثم وضع مستر دمبى
يده برقه على ظهر الطفل ... أن الصغار يكونون عادة
متعبين فى الليل ، وعندئذ ينامون جيداً .
- أوه ، ان هذا لا يكون ليلاً ، يا أبتى أنه يحدث فى
النهار ، وأنا أرقد حينئذ فى حجر فلورنس ، وهى تغنى
لى ... وفى الليل أحلم بأشياء غريبة .

ودهش ميتر دمبى وتولاه الضيق ، حتى أنه لم يستطع أن يفعل
شيئاً سوى أ ، يجلس متطلعاً الى ولده على شوء نيران المدفأة
 . ولما ظهرت المربية لتدعو الطفل الى فراشه ، قال بول "
اريد فلورنس أن تاتى معى " .

وللحال ظهرت فلورنس ، فقفز الطفل للتو من مكانه فى
رضاء وحيوية مفاجئة .

وبعد أن غادرى الغرفة معى ، خال لمتر دمبى أنه سمع صوتاً
ناعماً يغنى ، فتذكر ما قاله بول من أن اخته تغنى له . وتملكه
فضول ففتح الباب وأنصت ، وتتبعهما بعينيه .

كانت الفتاة تصعد الدرج الضخم الخالى ببطء ، والولد فى
ذراعيها . وكانت رأسه ملقاة على كتفها ، وذراعه ملتفة حول
عنقها ونظر مستر دمبى إليهما حتى اختفيا عن بصره ، ولكنه
ظل واقفا ينظر الى أعلى فى اتجاههما .

ودعا مستر دمبى تشك ومس توكس للغداء فى اليوم التالى
طالباً لمشورتها . كان يريد مستر دمبى ان يعرف ما خطب
بول .

- " ان عزيزنا ليس قوياً تماماً كما تحب " ، وتابع
مسز تشك " الواقع أن عقله أكبر من جسمه وسنه . ولكن
لا يوجد هناك ما يقلقك ويشغل بالك ، فأن غياب بعض
الوقت عن هذا المنزل ، وهواء بريتون ، والرعاية
الجسدية والعقلية لشخص حكيم مثل مسز بيبكين مثلاً

.....

- من هى مسز بيبكين ؟ يا لويزا ؟ .
- ان عندها مدرسة داخلية لأطفال من أفضل نوع .

وكانت مسز بيبكين الشهيرة سيدة عجوزة غير سارة . وكانت
لها شهرة عامة كمديرة حاذقة لأطفال . أما السر وراءه (
أدراستها الحاذقة فكان أنها تعطيهم كل ما لا يرغبون فيه ،
وتحرسهم من كل شئ يحبونه .

وبعد ثلاثة ايام من ذكر مسز تشك لاسم مسز بيبكين ، أخذت
مسز تشك ومس توكس فلورنس وبول الى بريتون .

- " حسناً ، سيدى " قالت مسز بيبكين لبول .. " كم تظن
أنك سوف تحبنى ؟ " .
- لا اظن أننى سوف أحبك إطلاقاً .. اننى أريد الذهاب
بعدياً ، هذا ليس منزلى .
- كلا ، أنه منزلى انا .
- أنه منزل كئيب .

- ومع ذلك فان به مكاناً أردأ مما ترى ...حيث نحبس فيه الأطفال الأشقياء .

وكان الغداء يقدم فى الساعة الواحدة ، وكان يتألف أساسا من النشويات والخضروات . اما مسز بيبكين ، التى كان جسدها يحتاج الى غذاء دسم ، فقد كانت تتناول من شرائح لحم الضأن ، تقدم أليها ساخنة وقد فاحت رائحتها الطيبة . وفى الوقت المخصص لتناول الشاى كانت مقادير كبيرة من اللبن والماء والخبز والزبد لأطفال . غير أنهم كانوا يقدمون لمسز بيبكين وعاءاً خاصاً مليئاً بالشاى مع كمية كبيرة من الخبر المقدد الساخن المدهون بالزبد .

أما عن الإفطار فى اليوم التالى فقد كان شبيها بالشاى .

وبعد الافطار ، كانت مسز بيبكين تشرف على بعض الدروس وكان من طريقه مسز بيبكين فى التعليم الا تساعد عقل الطفل على تكوين ذاته كالزهرة الصغيرة ، بل تفتح عنة كما تفتح بعض الأصداف الصلبة ذات شقين .

وهكذا كانت الدروس الأخلاقية لمنهجها من نوع صارم عنيف . وكان بطل القصة فى الدروس ، على سبيل المثال ، ولدأ شقياً متمرداً ينتهى امره بأن اكله أسداً او ذئب .

هكذا كانت الحياة فى مدرسة مسز بيبكين . وكان بول يجلس ويطليل النظر الى تلك المرأة العجوز ، وكان لا يبدو متعباً أبداً عندما كان يتطلع أليها متفرساً . ولم يكن الطفل مغره بها ، ولم يكن فى نفس الوقت خائفى منها ، ولكنها كانت تبدو جذابة اليه

فى حالات شروده وتأمله التى كانت كثيراً ما نتملكه وتعترية .
كما كان بول – فى ذات الوقت – ذا جاذبية غريبة من نفس
النوع كذلك بالنسة اليه .

ولما لم تتحسن حال بول فى نهاية الأسبوع الأول عما كانت
عليه عندما حضر مدرسة مسز ببيكين ، فقد اوا له بعربة
صغيرة ذات عجلات كانوا يدفعونها به الى شاطئ البحر .

وكان مكانه المفضل على الشاطئ بقعة منعزلة . وكان لا يريد
اكثر من أن يجلس هناك وفلورنس الى جواره والرياح تهب
على وجهه .

وذات يوم نام فى ذلك المكان ، وما أن استقظ فجأة ، حتى
أنتفض وجلس يتسمع .

- اريد ان اعرف ما يقول ، قال وهو ينظر فى ثبات الى
فلورنس .. هذا البحر ، يا فلوى ماذا يقول بأستمرار ؟
أننى اعرف أن الامواج تقول شيئاً ما . وهى تقول نفس
الشئ دائماً . ما هذا المكان الذى هناك ؟ .. ونهض الولد
يتطلع بشغف الى الأفق .

وقالت له أخته ان هناك بلاداً أخرى على الشاطئ القصى من
البحر ، ولكنه قال أنه لا يقصد ذلك وإنما يريد أن يعرف ماذا
يوجد بعيدى جداً – ابعد من ذلك كثيراً ! .

وبعد ذلك ، كان كثيراً ما يتوقف الصبى أثناء الحديث ، ليسال
عن الشئ الذى كان يخال ان الأمواج تكررهِ دائماً ابداً ، وكان

كثيراً ما ينهض مستنداً الى وسادته ، ليتطلع الى الأمام ، نحو
تلك البقاع البعيدة التي لا ترى .

الفصل السادس

(سول جلز في مأزق)

كان لدى (والتر جاى) حنان كبير للمكان الى قابل فيه فلورنس ، وللشوارع التى مر فيها سوياً فى طريقهما الى المنزل . وقد أخذ يبدو أكثر أناقة فى ملبسه عقب تلك المناسبة التى لا تُنسى . ولقد كان بالتأكيد يحب أن يسير فى أوقات فراغه نحو ذلك الجزء من المدينة ، حيث كان يقع منزل مستر دمبى ، لعله أن يقابل فلورنس الصغيرة وهى تمر فى الشارع .

وهكذا حدث خلال العام أن رفع والتر قبعته لفلورنس حوالى ست مرات عند رؤيتها فى الشارع ، وكانت فلورنس فى كل مرة لتصافحه .

هذه كانت حال والتر فى الوقت الذى كان فيه بول بمدرسة مسز بيبكين . وفى ذات صباح ، لاحظ والتر أن عمه لم يتناول أفطاره .

- ماذا يشغل بالك يا عمى ؟ زبائن ؟
- " آى " ، أجابه وهو يتنهد .
- لا تكتئب هكذا يا عمى . عندما تأتى الطلبات على البضاعة فسوف تكون كثيرة حتى أنك لن تستطيع الوفاء بها .

- سوف تكون حينئذ قد أتت متأخرة ، يا بنى . ثم تابع قائلاً : أنها لن تأتي لهذا المحل مرة أخرى حتى أكون أنا قد خرجت منه .
- لا تقل هذا يا عمى

وحاول سول العجوز أن يبدو مرحاً ، واخذ يبتسم لوالتر بقدر ما أستطاع . ولما عاد والتر مكاتب (دمبى وولده) دهش لأن يجد مستر بروجلى ، الحارس ، جالساً فى مؤخرة الجلوس .

- ما الامر ؟
- الواقع أن هناك ديناً صغيراً قد تأخر أدائه ، ولقد وضعت يدي على المحل
- " واللى ، يا بنى " صاح العم سول ، " مثل هذه الكارثة لم تقع لى إطلاقى من قبل " ووغطى الرجل وجهه بيده وأجesh بالبكاء بصوت عال .
- " يا عم سول ! عاهدتك الله لا تفعل ذلك " . ثم ادرا وجه لمستر بروجلى ، وقال " ماذا أفعل ؟"
- اذهب الى صديق لك واحسم معه الامر .
- " أنتظر ريثما أعود الى كابتن كابتن كتل .. " قالها والتر ، وهو يجرى من خارجاً من الدكان بأقصى ما يستطيع .

وعندما وصل والتر الى مسكن (الكابتن) وقرع الباب ، كان (الكابتن) ينظر من إحدى نوافذه الأمامية الصغيرة . وكانت يد (ند كتل) تشبه خطافاً قد ألصق بمعصمه ، كما كان له حاجبان كثيفان أسودان . وكان يحمل عادة عصاة ثقيلة فى يده اليسرى . لقد كان كتلى بحارى أو قبطاناً .

- كيف حال جلز ؟ . سأل الكابتن .

وعندما اخبره والتر بالأمر ، افرغ الكابتن كل ما كان لديه من نقود من صندوق معدنى صغير (وكان ذلك المال يبلغ الثلاثة عشر جنيهاً والشلنين والست بنسات عداً) ووضعه فى أحد جيوب سترته الزرقاء . وهناك وضع أيضاً ملعقتى شاي قديمتين ، وساعة فضية كبيرة وأداة عتيقة لالتقاط قطع السكر من أنيتها . ثم أعاد تعديل وضع الخطاف الى معصمه الأيمن ، واخلد عصاه وامر والتر أن يأتى معه .

ولما وصلا الى باب سول العجوز ، هرع القبطان الى مؤخرة حجرة الجلوس .

- " يا جلز " ، قال القبطان " سوف نحارب معاً للخروج من هذا المأزق ..من هو الدائن ؟
- أسكت ، لا تتحدث أمام واللى . لقد أتى هذا الدين ضماناً لأبيه . ولقد دفعت قدراً كبيراً منه ياند ولكن الظروف الآن قد ساءت معى حتى أننى لا أستطيع أن ادفع شيئاً اخر . يحسن أن يباع ما يحويه المحل من بضاعة فإنه يساوى أكثر من الدين ..كما يحسن أن اذهب أنا ومعى باقى النقود ، لأموت فى مكان اخر

وسار الكابتن كتلى جيئة وذهاباً فى الدكان لوقت ما ، وهو يفكر بعمق .

- يا والتر ، لقد واصلت الى حل . أن صاحب المحل الذى يوظفك هو الشخص الذى يقرضنا النقود .
- تقصد مستر دمبى
- أسرع أولاً الى المكتب لترى اذا كان موجوداً هناك .

وعاد والتر بعد فترة وجيزة ليقول أن مستر دمبى ليس هناك
لقد كان اليوم هو يوم السبت ، وكان مستر دمبى قد ذهب الى
بريتون
وإستأذن القبطان بسرعة من (سول جلز) ، وذهب مع والتر
الى بريتون

الفصل السابع

(بول يعرف قيمة المال)

بعد أن نظر (ميجور باجستوك) طويلاً وكثيراً الى بول من خلال نظارة المسرح ، وبعد أن تلقى تقارير يومية ، وأسبوعية وشهرية بخصوص ذلك الأمر من خادمه الذى كان يعرف خادمته مس توكس ، صمم (الميجور على التعرف الى مستر دمبى

ولما حمل اليه الخادم النبأ بأن مس توكس قد ذهبت الى بريتون وبأن بول فى مدرسة بيبكين ، وجد الميجور الفرصة التى أنتظر طويلاً أن تسنح ونزل الميجور الى بريتون ، وهناك قابل بول وفلورنس ، فى صحبة رجل تبدو عليه الواجهة والأهمية ووقف الميجور يلاحظهم معجباً بهم

- " أن صديقى الصغير هنا ، يا سيدى " وتابع الميجور كلامه لمستر دمبى " يجعلنى أحس بالشباب مرة أخرى جندى قديم يا سيدى - هو الميجور باجستوك الذى كفى خدمتك - لا يخجل من الاعتراف بذلك أن لى الآن شرف التحدث الى مستر دمبى على ما أعتقد ؟

- أننى الممثل الحالى الغير جدير لذلك الأسم ، يا ميجور ...رد عليه دمبى

- وحق الله ، يا سيدى انه لاسم عظيم . قسماً بالله أنه
لأسم عظيم
- أنك من الطيبة لأن تقدره ربما بأكثر مما يستحق يا
ميجور ..
- هل ستبقى هناك يا مستر دمبى
- أننى احضر عادة مرة كل أسبوع ، وسوف أنزل
بفندق بيدفورد
- شوف يكون لى شرف زيارتك بفندق بيد فورد ...إذا
سمحت لى ؟

وزار الميجور بعد ذلك مستر دمبى ، ورد مستر دمبى الزيارة
للميجور . بعد أن نظر فى قوائم الجيش . وبعدئذ زار الميجور
مستر دمبى فى منزله بالمدينة ، ثم نزل الى بریتون مرة
أخرى فى نفس العربة كمستر دمبى . وبالأختصار ، توثقت
عُرى الصداقة بين الرجلين بسرعة غير عادية .

وكان مستر دمبى قد أحضر معه مس توكس ومسز تشك الى
بریتون لتريا طفليه ، ولما وجد الميجور هناك مرة أخرى ،
دعاه لتناول الغذاء معهم بفندق بيد فورد ، حيث أمتدح مس
توكس كثيراً أمام جارها وصديقها الميجور . غير أنه على
طول الطريق عائداً الى فندقه ، كان الميجور لنفسه بأستمرار .

- هل سوف تفعلين ، يا سيدتى ، هل سوف تفعلين ؟
- ...سوف تصبحين مسز دمبى ، يا سيدتى ...ايه ؟ كلا ، لا
اظن ذلك يا سيدتى . لن يكون ذلك طالما استطاع جو
باجستوك أن يقف فى طريقك يا سيدتى .

وفى اليوم التالى لذلك (وكان يوم الأحد) ، كان مستر دمبى ومسز تشك ومس توكس جالسين الى طعاك الأفطار ، حيث انت فلورنس تجرى ، وقد ولع وجهها وبرقت عيناها فى فرح ، وهى تصيح :

- يا بابا ! يا بابا ها هو والتر ، وهو لا يريد أن يدخل
- من ؟ ماذا تقصد الفتاة ؟ ما هذا ؟
- " والتر يا أبى " قالت فلورنس فى رقة وخجل " والتر الذى وجدنى عندما فُقدت
- " هل تقصد جاى الصغير يا لويزا ؟ " تساءل مستر دمبى مكشراً " أن هذه الفتاة قد أضحت غريبة الأطوار ذات صخب .
واسرعت مسز تشك الى الممر الخارجى ، وعادت لتقول أنه جاى الصغير ، مصحوباً بشخص غريب المنظر .

- " أخبروا الغلام أن يدخل " ، وبعد ما دخل تابع مستر دمبى كلامه " والآن ، يا جاى ، ما الأمر ! من أرسل الى هنا ؟ ألم يكن هناك شخص آخر ليحضر سؤالك ؟
- " عفواً سيدى ، لم يرسلنى أحد . لقد كنت من الجراءة بحيث حضرت لغرض شخصى ، أرجو أن تسمح لى بذكره .
- ولكن مستر دمبى ، كان ينظر حواليه فى قلق الى شى ما ، دون أن يلقى بالآ الى ما قال :
- " ما هذا ؟ أعتقد أنك أخطأت فى الباب يا سيدى

وتقدم القبطان خطوة الى الداخل ، وقف منحنيًا لمستر دمبى
وملوحًا بخطافه فى ادب لسيدات ، وتطلع مستر دمبى لهذه
الظاهرة فى دهشة وغضب ..

وتكلم والتر وهو يرتعش وملقى نظره فى الأرض ، وقال :

- أعتقد ، يا سيدى لقد كانت تنقصنى الشجاعة لطلب
مقابلتك ، حتى بعد أن وصلت الى هنا ، لولا رؤيتى لمس
دمبى و "

- " حسناً " قال مستر دمبى ، وهو يتتبع عينى والتر
المتجهتين بنظراتهما الى فلورنس التى كانت واقفة
تصغى بأهتمام ، ويكشر دون وعى منه لفلورنس التى
كانت تشجع والتر بابتسامتها " حسناً .. استمر فى كلامك
، لو سمحت "

- أن عمى المسكين فى مأزق كبير ، فبسبب خسارته
فى عمله ، وعدم قدرته على الوفاء بدين ما ، قد أوقع
الحجز فى بيته ، واصبح مهدداً بفقد كل ما يمتلك . فلو
تعطفت ، لكرمك يا سيدى . ولمعرفتك بأنه رجل محترم
، يعمل أى شئ لمساعدته فى الخروج من هذا المأزق ،
فنحن لن نقو أبداً على أن نفيك حقك من الشكر

وأمتلأت عينا والتر بالدموع وهو يتابع كلامه

" أنه مبلغ كبير جدى يا سيدى ... أكثر من ثلاثمائة جنيه .
ولكن هناك بضاعة عمى ، وهناك كابيت كتلى أيضاً الذى
يرغب فى أن يكون ضامناً . وأنا لا أحب أن اذكر ايضاً

مكسبى من عملى ، ولكن أذا أمكن اخذه نظير المال الذى
تقرضه لعمى ... " وقف الغلام منخفض الرأس أمام موظفه .

وعندئذ تقدم كابتن كتلى نحو المائدة ، وأفسح مكاناً بين أكواب
الأفطار (قرب مرفق مستر دمبى) لينثر عليه ساعته الفضية
، ونقوده ، وملاعق الشاى ، وأداة التقاط قطع السكر (ماسكة
السكر) .

- ونادى مستر دمبى " يا بول تعال الى هنا ! .. "
- وأطاع الطفل الأمر ، واخذه مستر دمبى على ركبته .
- لو كانت لديك نقود الآن بالقدر الذى يقوله جاى
الصغير ، ماذا كنت ستفعل ؟
- اقدمه لعمه
- تقرضه لعمه ... حسناً ! عندما تكبر فسوف تشاركنى
أموالى ، وسوف نستخدمها معاً .
- " دمبى وولده " قالها بول الذى كان قد لقن هذه
العبرة مبكراً فى حياته .
- " دمبى وولده " ، اردف الأب " هل ترغب فى أن
تكون " دمبى وولده " من الآن ، وتقرض هذا المال لعم
جاى الصغير ؟
- أوه لو سمحت يا بابا ، وهكذا سترغب فلورنس
- البنات لا شأن لهن بدمبى وولده ... هل ترغب أنت فى
ذلك ؟
- أجل يا بابا . أجل !
- أذن فسوف نفعله
- وعندئذ توجه مستر دمبى الى منضدة ما وكتب خطاباً قصيراً
وأغلقه .

- أعط هذا لمستتر كاركز سوف يقوم هو بدفع المبلغ .
واعتبر هذا العمل مقدماً لك من السيد بول . لا ارغب من
المزيد من الكلام من فضلكم

واذا أسار نحو الباب ، لم يستطع والتر الا أن يحنى راسه
ويغادر المكان . ولدى رؤية أشياء القبطان على المنضدة ، قال
مستر دمبى " تكرم باخذ هذه الأشياء بعيداً من فضلك يا سيدى
"

ولم يكن أمام القبطان الا أن يطيع . ثم قبل الكابتن كتلى (خطافه)
تحية للسيدات عدة مرات ، واصطحب والتر خارج
الغرفة . وأخذت فلورنس تجرى خلفهما لتبعث برسالة الى
سول العجوز ، الا ان مستر دمبى طلب منها العودة وأمرها
بالبقاء فى مكانها .

- ألم تصبحى أبداً مث أل دمبى ، يا طفلتى العزيزة
..قالت مسز تشك
- يا عمتى العزيزة ، لا تغضبى منى . أننى شاكرة جداً
لبابا !

الفصل الثامن

(مدرسة الدكتور بلمير)

رعت مسز بيبكين بول الصغير وأخته حوالى اثنتى عشر شهراً ، وشيئاً فشيئاً ، أخذ بول يقوى ويشتد ، ولكنه كان لا يزال يبدو نحيفاً رقيقاً ، كما أنه بقى نفس الطفل القديم ، الهادئ ، الحالم كما كان ، عندئذ وضع تحت رعاية مسز بيبكين ، بأدئ الأمر . وفى ذات عصر من ايام السبت ، حضر مستر دمبى لدار مسز بيبكين دون توقع .

- " مسز بيبكين " قال مستر دمبى " أن ابنى الآن فى السادسة من عمره ، ولا شك فى انه ، كما أخشى متخلف فى دراسته عن الكثيرين من أقرائه فى مثل سنه . ولقد كان يجب أن يكون ابنى متفوقاً جداً على أقرانه بدلاً من أن يكون متخلفاً عنهم . أن هناك مركزاً كبيراً ينتظره . وان تعليم مثل هذا السيد الصغير لا يجب أن يؤجل أو يترك ناقصاً . ولقد كنت أفكر فى ارساله لمدرسة الدكتور بلمير " ..

- أعتقد أن مدرسة الدكتور بلمير ممتازة " قالت مسز بيبكين " لقد سمعت أنها تدار بحزم ودقة شديدين ، ولا يوجد شئ يجرى فيها سوى التعليم من الصباح الى المساء . وعاد مستر دمبى الى فندقه وقد صمم بشدة على ان بول يجب أن يبدى فى الحال منهجاً دراسياً وأن الدكتور بلمير يجب أن يأخذه فى رعايته .

ومؤسسة الدكتور كانت منزلاً بدعياً في مواجهة البحر . غير
انها لم تكن بيتاً بهيجاً من الداخل . فأن الستائر ذات الألوان
الحزينة القاتمة كانت تستقر خلف النوافذ . والمناضد والمقاعد
كانت موضوعة في صفوف وحجرة الطعام كانت تبدو كأخر
مكان في العالم يمكن أن يجري فيه طعام أو شراب . ولم يكن
هناك صوت ما في جميع أرجاء المنزل عدا دقات ساعة كبيرة
في الصالة ، وفي بعض الأحيان كانت تسمع هناك أصوات
الصغار وهم يرددون دروسهم .

وعلى عتبات باب الدكتور وقف بول ذات يوم بقلب مرتجف
ويده اليمنى الصغيرة في يد والده . أما يده الأخرى فكانت يد
فلورنس تحتويها بشدة .

- " والآن يا بول " قال مستر دمبي في زهو و انتصار
" هذا هو السبيل لتكون حقيقة دمبي وولده ، وتستحوذ
على نقود كثيرة . أنت الآن رجل تقريباً " .
- " تقريباً " قال الطفل .

وكان الدكتور جالساً في غرفة مكتبه ، وقد استقرت على كرة
أرضية على كل من ركبتيه ، وانتثرت الكتب الكثيرة من حوله
. "؟ وكيف حالك ، يا سيدى " قال لمستر دمبي " وكيف حال
صديقى الصغير ؟ " ولما توقف عن الكلام ، بدت الساعة
الكبيرة في القاعة وكأنها تردد قائلة " كيف حال صديقى
الصغير ؟ كيف حال صديقى الصغير ؟ " .

- " حسناً جداً ، أشكرك يا سيدى " قال بول مجيبى
الدكتور وكأنه يجيب الساعة في ذات الوقت .

- " ها ! قال الدكتور بلمير " هل سوف نجعل منه رجلاً ؟ "
- " أننى أفضل أن اكون طفلاً " أحاب بول .
- " حقاً ! قال الدكتور .. لماذا ؟ "

وجلس الطفل على المنضدة يتطلع اليه . بتعبير غريب على وجهه . وكان يضرب بيده فى كبرياء على ركبته كما لو كان يمنع الدموع المتصاعدة الى ما فيه . ولكن بيده الأخرى كانت تتحرك بعيداً حتى استقرت على عنق فلورنس ، وكأنه أراد بذلك أن يقول " هذا هو السبب " ، ثم لم تلبث الدموع أن أتت منهمة .

- بول ، يا طفلى ، وداعاً " قال مستر دمبى .
- وداعاً ، يا بابا "
- " انت سوف تحاول أن تتعلم أشياء كثيرة هنا ، وتكون رجلاً مجتهداً ، قال دمبى " أليس كذلك ؟ "
- سوف أحاول
- وسوف تنمو الآن سريعى
- " أوه سريعا جداً " أجاب الطفل . ومرة اخرى طافت النظرة القديمة بوجهه فى سرعة كضوء غريب .

وجرى فلورنس عائدة لتلقى يذراعيها حول عنقه . وكان وجهها آخر شئ لاح له فى مدخل الباب وهى تتلفت نحوه بابتسامة تشجيع خلال دموعها . ثم سمع بول بعدئذ دقائق الساعة العالية فى القاعة وهى تتساءل فى جد وراثة " كيف حال صديقى الصغير ؟ كيف حال صديقى الصغير ؟ "

وجلس الطفل بيدين مطويتين ، يتسمع فى صمت وسكون .
ولكنه لو أراد الأجابة لقال " أننى متعب ...متعب ! منفرد ،
وحزين جداً " .

وفى الصباح التالى ، نزل بول الى الحجرة التى يودى فيها
الصغار واجباتهم الدراسية . وما أن مر الى جوار باب نصف
مفتوح ، حتى سمع صوتاً من الداخل يصيح قائلاً " هل هذا
هو دمبى ؟ وعندما أجاب بول قائلاً " نعم يا سيدتى " قالت
مس بلمبر " ادخل يا دمبى " فدخل الصبى .

وجذب ألتفات بول الى كوم صغير من الكتب الجديدة

- هذه هى كتبك يا دمبى
- كلها يا سيدتى
- " نعم " ، ومستر فيدر سوف يحضر لك بعضاً فى
القريب العاجل ، اذا كنت مجتهداً فى العمل كما أتوقع أنك
ستكون ، يا دمبى
- اشكرك يا سيدتى
- سوف أخرج الآن لسير بعض الوقت

وبينما أنا فى الخارج ، أى من الآن حتى وقت الإفطار ، ارجو
أن تقرا ما وضعت عليه من علامات فى هذه الكتب . لا تضيع
وقتك يا دمبى وابدأ فى الحال .

ولما انتهى الافطار ، تبع بول بلمبر الى أعلى .

- والان يا دمبى ، كيف سرت فى هذه الكتب ؟

وكان بول قد أختلط عليه كل شئ .
- اوه ، دمبى ، دمبى ! هذا سئ جداً والآن خذ الكتاب
الذى فى اعلى الصف بعيداً عندما تكون حفظت الدرس
الأول .

وفعل بول كما امر واخذ يذاكر فى اجتهاد . وكان فى بعض
الأوقات ينسى كل شئ وأخبرى سعد الى الطابق العلوى مرة
أخرى ليكرر دروسه .

واشتغل بول جيداً ، وأثنت مس بلير عليه وقدمت له فى الحال
الدرس الثانى ، قم الثالث ، ثم الرابع قبل الغداء ، ثم استأنف
العمل يشدة فى دراسته بعد الغدار مباشرة ، فتشعر بالدوار
والنعاس وعدم القدرة على الفهم والاستيعاب . ولكن كل
الغلمان الآخرين كانوا يشعرون بنفس الشئ وكانوا يضطرون
الى الاستمرار فى الدراسة أيضاً وبعد الشاى ، كان هناك عمل
اخر وأستعداد لليوم التالى وأخيراً كان هناك نوم .

وفى يوم السبت : يا ليوم السبت السعيد كانت فلورنس دائماً
تأتى عند الظه وكان يذهبان معاً الى شاطئ البحر أو يجلسان
ويسيران معاً ، أو يمكثان فى حجرة مس بلمبر الخلفية الكئيبة
، وفلورنس تغنى له فى رقة ونعومة ورأسه النائم مستقرا على
ذراعيها ، غير أن بول كان يبدو سعيداً جدى فى كل هذه
الأحوال . كانت فلورنس هى كل ما كان يفكر فيه .

وكانت مس نبير عائدة ذات ليلة من ليالى الأحد مع فلورنس ،
بعد أن يارا عائدين ببول الى مدرسة الدكتور بلمبر عندما

قدمت له فلورنس قطعة صغيرة من الورق ، كانت قد كتبت عليها بعض الكلمات .

- " أنظري يا سوزان هذه اسماء الكتب الصغيرة التي يحضرها بول للمنزل ليحل التمارين الطويلة . اريدك أن تشتريها لي ، اذا سمحت لي ، باكر صباحاً " .
- ولماذا تريدين هذه الكتب ؟
- أعتقد اننى استطيع ان اقدم لبول بعض المساعدة ، واجعل العمل القادم اسهل قليلا بالنسبة له .

وكانت فلورنس تجلس الى هذه الكتب ليلا لتتابع دروس بول بعد أن تكون قد انتهت دروسها اليومية ، وهكذا تعلمت حالا قدر بول بل واكثر .

وكان اجرها عظيماً حين جلست ذات امسية من امسيات السبت الى جانب بول ، وأرته كل صعب عسير ، وقد بات واضحاً سهلاً . ودائماً بعد ذلك ، كانت فلورنس تجلس مع بول ليلة الأحد وتساعده فى صبر فى أداء عمل الأسبوع التالى .

ولما قال الدكتور بول أن بول قد تقدم تقدماً كبيراً ، واصبح مجتهداً مُجداً ، صمم مستر دمبى أكثر من ذى قبل على أن يضطر ولده الى تعلم شيئاً اكثر .

وحالا فقد بول كل حيوته ، ولكنه أحتفظ بكل ما كان له فى الماضى من شرود وأطوار غريبة . وذات مساء ذهب مستر توتس ، اكبر ولد فى المدرسة لرؤية بول :

- " فيما تفكر " ، صاح توتس وهو يدخل حجرة بول .

- أوه ! أننى أفكر فى أشياء كثيرة .
- حقيقة ؟ سأل توتس .
- " اذا كان عليك أن تموت " قال بول ، وهو يتطلع الى وجهه وحملق مستر توتس فى اضطراب .
- الا تظن أنه من الأفضل أن تموت فى ليلة مقمرة عندما تكون السماء صافية تماماً ، والرياح تهب كما تفعل فى الليلة الماضية .

وقال مستر توتس ، وهو ينظر فى شك الى بول ، أنه لا يعرف شيئاً عن هذا الأمر

- " ربما لم تكن تهب " قال بول " ولكنها كانت على الأقل تحدث أصواتاً فى الفضاء كاصوات البحر فى الأصداف . لقد كانت ليلة بديعة . وبعد ما أنصت المياه وقتاً طويلاً ، نهضت وتطلعت . كان هناك تقارب بعيد ، فى ضوء القمر المتكامل ، قارب ذو شراع . والشراع كانت تشبه ذراعاً من فضة . وراح القارب بعيداً بعيداً وبدأ انه ينادى - ينادينى لأغدو اليه : هاك هى ! هاك هى "

وارتعب توتس لتلك الصيحة المفاجئة ، وصاح من ؟

- أختى فلورنس ! ، تتطلع الى هنا وتلوح بيدها أنها ترانى ! ليلة سعيدة يا عزيزتى ، ليلة سعيدة ، ليلة سعيدة .

واذا باتت الأمسيات أكثر طولا حينئذ كان بول يزحف الى نافذته كل مساء ليتطعم باحثاً عن فلورنس وكانت دائماً تمر في وقت معين وكانت رؤيتها شعاعاً بهيجاً من ضوء الشمس في حياة بول اليومية ، وبعد هبوط الظلام كان كثيراً ما يسير شبخ اخر بمفرده أمام منزل الدكتور وكان هذا الرجل حينئذ لا يشاركهما كثيراً في يوم السبت ، كان يفضل أن يأتي في هدوء ، دون أن يلحظه أحد ، ويتطلع الى النوافذ حيث كان ابنه يستعد ليغدو رجلاً ، وينتظر ، ويراقب ، ويرسم الخطط ويؤمل .

الفصل التاسع

(أعمال المكتب)

كانت مكاتب مستر دومبى فى ساحة يوجد بأحد اركانها وكان قديماً لبيع أفضل أنواع الفاكهة ، يعرض فيها البائعون ما بين الساعة العاشرة صباحاً والخامسة مساءً النعال والمحافظ وأطواق الكلاب والصابون وما الى ذلك

ولما ظهر مستر دمبى ، تراجع هؤلاء البائعون الى الخلف بأحترام وجرى البواب ليفتح الباب ويفسح الطريق

ولما رأى مستر بيرش الساعى ، مستر دمبى يدخل ، أسرى الى حجرة مستر دمبى ليشعل النيران بوضع فحم جديد فى المدفأة ، ويضع كرسيه فى مكانه ثم أستدار لحظة دخول مستر دمبى الى الحجرة ليأخذ معطفه وقبعته ويلقهما

وأقرب حجرة لمستر دمبى كانت تلك التى يشغلها كاركر مدير اعماله وكان مستر كاركر فى نحو الثمانية والثلاثين أو الأربعين من عمره ، ذا وجه أحمر اللون ، وصفين كاملين من الأسنان اللامعة البراقة التى لا يمكن تجنب النظر إليها ، لانه كان يظهرها كلما تكلم ، وكانت ابتسامة عريضة تلوح على وجهه ، بها شئ مما يبدو على القطة حين تموه غاضبة

- " كيف حالك اليوم ؟ " قال مستر كاركر ، وهو يدخل حجرة مستر دمبى ذات يوم ، ويده عدد من الأوراق

- "كيف حالك يا كاركر ؟ " قال مستر دمبى " هل لديك شئ لى ؟ "

- " أرسل مورفن افادة بوفاة شاب فى توكلينا ببلدة باربادوس ، وهو يقترح أن نحجز مكاناً على الباخرة (صن أند أير) للشخص الذى سوف يحل مكانه أنت لا يهتمك من يذهب ، على ما أعتقد ؟ "

فهز مستر دمبى رأسه فى غير أكثرات :

- " أنه ليس عملاً طيباً " ثم تابع " من هذا ؟ أدخل " - " هذه خطابات لمستر دمبى ، يا سيدى " قال والتر ، وقد ظهر ببعض الخطابات فى يده - " حسناً جداً " قال مستر كاركر ، وهو يأخذها منه فى حده " أذهب انت الى عملك "

ولكن عند تناول الخطابات ، أسقط كاركر واحداً منها على الأرض ، وتردد والتر برهة ، فى انتظار ان يلاحظ أحدهما ذلك ، ولكن عندما لم يحدث ما كان ينتظره ، التقط الخطاب ووضعته بنفسه على مكتب مستر دمبى وكان هذا الخطاب هو تقرير مس بلمبر الدورى المنتظم الذى يُرسل عادة بواسطة فلورنس وما أن جُذب ألتفات مستر دمبى الى هذا الخطاب بواسطة والتر ، حتى استدار ونظر فى صرامة إليه ، كما لو كان قد أعتقد انه قد تخيره عمداً دون باقى الخطابات

- " يمكنك أن تغادر الحجرة يا سيدى " قالها مستر دمبى فى عزيمة وتعال

وثنى الخطاب بين أنامله كما لو كان يريد أن يُلقى به فى سلة
المهملات غير أنه لم يلبث أن وضعه فى جيبه ، حين رأى
والتر خارج الباب

- " انت تريد شخصى ترسله الى جزر الهند الغربية ؟
" ..ثم تابع مستر دمبى ، " ارسل جو الصغير " نادى
عليه

وعاد والتر بسرعة

- سوف ارسلك لتأخذ مكان أحد شبابنا فى دار الأحصاء
بباربادوس فى جزر الهند الغربية .
- وهل سأتبقى هناك يا سيدى ؟
- ماذا يقصد يا كاركر ؟ سأل مستر دمبى .
- أقصد : هل سوف أعيش هناك ؟ قالها والتر متردداً .
- اجابه دمبى : بالتأكيد

وانحنى والتر له

- " ليس هناك ما يدعو لبقائه ، يا كاركر ، قال مستر
دمبى " الا اذا كان لديه ما يريد أن يقول .
- " كلا يا سيدى " أجاب والت وهو يرتعش ولا يقوى
على التفكير " أكاد لا أدرى ..أننى ..اننى شاكر جداً ، يا
سيدى .
- " لا ضرورة لبقائه ، يا كاركر " قال مستر دمبى
- وسار والتر الى الخارج وقد أمتلاً دهشة وعجباً .

ولم يكن بمستطيع ان يصدق انه على وشك أن يرسل الى جزر
الهند الغربية ، وانه على وشك أن يحرم من العم سول ، ومن
الكابيت كتلى ومن رؤية فلورنس دمبى – كلا أنه يقصد بول –
ومن كل من كان يحب ، ومن كان يتطلع إليهم فى حياته
اليومية .

الفصل العاشر

(بول يعود الى منزله)

واقتربت أجازة منتصف الصيف

و ذات مساء ، وقد دخل بول الى حجرة مستر فيدر ، رأى
مُدرسة تملأ المواضع الخالية فى بعض الخطابات المطبوعة
، بينما كانت تطوى الخطابات الاخرى التى فرغ منها وتغلق
بواسطة مستر توتس وقال مستر فيدر " آها ، دمبى ، أنه انت
، أليس كذلك ؟ " ثم اردت قائلاً وهو يرى أحد الخطابات نحوه
" ها هو انت أيضا يا دمبى ، هذه الخطابات لك "

وكان ذلك الخطابات دعوة الى الحفلة يعقدها الدكتور بلمبر
للمدرسة كلها وعندئذ أخبره مستر فيدر لفرحه العظيم ، ان
اخته مدعوة وأنه يستطيع ان يعود معها بعد الحفلة ، نظرى
لبداء الأجازة ذلك اليوم

وفى تلك الليلة شعر بول بالتعب ، حتى انه اضطر الى ان
يسند راسه التى كان كثيراً ما يشعر فيها بالألم وثقل الى يده
وشيئاً فشيئاً سقطت تلك الرأس على ركبة مستر توتس
واستقرت هناك كما لو كان لا يهتمها أن يرفع أبداً مرة ثانية

وسمع مستر فيدر ينادى فى اذنه ، ويهزه فى رفق ليثير انتباهه
ولما رفع رأسه ، وجد ان الطبيب قد دخل الى الحجرة ، وان
النافذة مفتوحة وان جبهته مبللة بقطرات من الماء . وبدا له ان
شيئاً ما قد حدث فى ارض الغرفة تدور من حوله . ولما اخذ

مستر توتس بول فى ذراعيه ليحمله الى الدور العلوى ، لاحظ بول فى دهشة أن الباب قد أضحى فى مكان مختلف تماماً من ذى قبل .

وبينما كان راقداً بعينين مغلقتين سمع بول الطبيب يقول انه محتاج الى تجديد القوى ، وأنه فى حالة ضعف بدنى شديد . ثم عاد الطبيب مع الدكتور ومسز بلمبر ليقول :

(أجل اعتقد يا دكتور بلمبر أنه يحسن أن نعتق هذا السيد الصغير من كتبه الآن حالا) .

(بالتأكيد) قال الدكتور بلمبر .

واخيراً حان يوم الحفل . ولما ارتدى بول ثيابه ، نزل الى حجرة الاستقبال . ووصل فى اثره مباشرة مستر توتس ومستر فيدر ، وكل منها يحمل قبعة فى يده ، كما لو كان يعيشان فى مكان اخر .

ولم تلبث فلورنس ان وصلت وقد بدأت رائعة الجمال فى رداء السهرة البسيط ، وهى ممسكة فى يدها ببعض الزهور الياضعة . وركعت على الأرض لتطوق عنق بول بذراعيها وتقبله .

- " ولكن ما الأمر يا فلوى " سأل بول ، وقد تأكد أنه رأى دمعة تطفر منها .
- لا شئ يا عزيزى ، لا شئ .

ولم يستطع بول ان يفهم لماذا حولت فلورنس وجهها بعيداً للحظة وجيزة ، ثم أعادته وقد أضاء مرة أخرى الأبتسامات .

كانوا جميعاً ظرفاء معه ، حتى الغرباء ، وكانوا يأتون ويتحدثون اليه بين آونة وأخرى ، وسألوه عن صحته ، وعما اذا كانت راسه تؤلمه ، وعما اذا كان متعباً . وكانت فلورنس تريد ان تجلس الى جواره طول الليل ولا ترقص على الإطلاق ، ولكن بول جعلها ترقص حين اخبرها بان ذلك يسره كثيراً . وقد كان هذا حقيقياً ، لان قلبه الصغير كان يمتلئ بالفرح ووجهه يلمع بالحبور عندما كان يرى الناس جميعى معجبين باخته الحبيبة .

وحان الوقت للرحيل ، وودع السادة الصغار بول فى صخب وضجيج ، وهم يلوحون خلفه بقبعاتهم ويتدافعون على الدرج لمصافحته وكل منهم يصيح " دمبى لا تنسنى ! " .

ولما ذهب بول لمنزله حمل على الدرج الذى كان يذكره جيداً وكان يذكر أيضاً سريره القديم ، عندما وضعوه فيه . ولكن كذلك هناك أمر يقلقه !

" اريد أن أتحدث مع فلورنس. دقيقة واحدة ، لو سمحتم ..

وانحنت الفتاة فوقه ، ووقف الآخرون بعيداً .

- " فلوى يا حبيبتي ، ألم هو بابا الذى فى القاعة عندما أتوا بى من العربية ؟
- نعم يا عزيزى

- أنه لم يبك ويذهب الى حجرته ، يا فلوى هل فعل ذلك
عندما رآنى ادخل ؟

فهزت فلورنس رأسها ، وضغطت بشفتيها على خده .

- أننى مسرور جدى انه لم يبك ، كنت اظن انه فعل ذلك
...لا تخبريهم بأنى سألتك فى هذا الأمر "

الفصل الحادي عشر

(ما كانت تقوله الأمواج دائماً)

ولم ينهض بول أبدى من فراشه الصغير . لقد ظل راقداً هناك
فى هدوء ينصت الى الأصوات التى فى الشارع ، وهو لا
يهتم كثيراً بمرور الوقت .

وكانت أفكاره تتجه بطريقة غريبة الى النهر ، الذى كان
يعرف أنه يجرى وسط المدينة العظيمة ، وكان يسرح الفكر
فى لون ذلك النهر وفى عمقه ، وفى جريانه الثابت المستمر
نحو البحر .

- " لماذا لا يتوقف ابدأ عن الجريان ، يا فلوى ؟ . انه
يحملنى معه بعيداً " .

وتغير كل الناس حوله عدأ فلورنس . أن فلورنس لا تتغير أبداً
ولكن شبحاً يحمل رأسه على يديه كان يعود كثيراً ، ويبقى
طويلاً ويجلس ساكناً الى جواره ، لا يتحدث الى احد ، ولا
يرفع وجهه الا نادري ، حتى ان بول بدأ يتعجب هل هى حقيقة
هذا أم خيال ، وفى خلال الليل كان جالسى هناك فى خوف .

- يا فلوى ، ما هذا ؟

- أين يا حبيبى ؟

- هناك فى أسفل الفراش ؟

- لا احد هناك سوى بابا !

ورفع الشبح رأسه ، ونهش واتى الى جانب الفراش وهو يقول
" يا ولدى ، الا تعرفنى ؟ " .

وتفرس بول فى وجهه ، ولكن الوجه الذى ظن انه قد تغير
تحرك كما لو كان فى ألم شديد . وقبل أن يتمكن الولد الصغير
من مد يديه لجذبه اليه ، تحول الشبح بعيد فى سرعة خاطفة
عن السرير الصغير وخرج من الباب .

وفى المرة التالية التى رأى الشبح فيها جالسا عند أسفل الفراش
، ناداه قائلاً

- " لا تحزن من أجلي يا عزيزى بابا !! الواقع أننى
سعيد جداً " .

ولم يحاول بول أن يعرف كم من الليالى ظل النهر القاتم
الأسود ينحدر نحو البحر على الرغم منه .

- " يا له من مُسرّع فى جريانه يا فلوى ، وهو يشق
طريقه بين ضفتيه الخضراوتين ! ولكنه قريب جداً من
البحر . أننى اسمع الأمواج " .

قم أخبرها حالاً بعد ذلك ان حركة القارب فوق النهر تهدده
وتجلب اليه الراحة والنعاس . يا لها من ضفاف قد اصبحت
الآن رائعة الأخضرار ! يا لأزهار اليانعة المزدهرة التى تنمو
فوقها ! ها القارب الآن قد خرج الى البحر ، ولكنه يبحر فى
سهولى ورفق ، وها هو شاطئ بديع جذاب قد لاح أمامه . من
ذلك الواقف على الشاطئ ؟ .

- ماما تشبهك يا فلوى ، أننى اعرفها بوجهها " .

وأشرق الضوء الذهبى على الحائط ، ولم يتحرك شئ آخر فى
الحجرة .

ومات الصغير بول .

الفصل الثانى عشر

(الأب و البنت)

هناك سكون تام فى منزل مستر دمبى و الطفل يرقد هادئاً
جميل المنظر على فراشه الصغير

وخلال ذلك الوقت ، لم ير أحد الأب المحزون ، لأنه كان
يجلس فى الركن الداخلى فى غرفته الخاصة المظلمة ، بينما
كان بعض الناس فى الخارج ، وكان لا يظهر الا عند ما يسير
لقضاء ضرورة ما بيد أن الخدم تهامسوا فى الصباح بأنهم قد
سمعوا السيد يصعد الى الدور العلوى فى منتصف الليل، وأنه
قد بقى هناك – فى الحجرة – حتى أشرقت الشمس

والآن ، أخذ مستر دمبى يمر وسط جماعة من الخدم الذين
يرتدون ثياب الحداد و النسوة الباقيات ، و يخترق القاعة فى
طريقه الى عربته التى تنتظره فى الخارج وكان اولئك الناس
يظنون ان الحزن الهائل الذى نزل به لم يستطع ان يقهره ،
غير أن وجهه بدأ شاحباً قد أمتص منه ماء الحياة

وتحرك الجناز الكبير ببطئ فى الشارع حتى اقترب من أبواب
الكنيسة التى كانت تدق اجراسها لقد كانت نفس الكنيسة التى
تعمد فيها الطفل ، و اخذ اسمه ، وهو كل ما تبقى له بعد ذلك
على الارض

ولما أنتهت المراسيم الدينية ، و غادر الكاهن المكان سأل مستر
دمبى عن الرجل المكلف بالحضور و تلقى التعليمات

بخصوص النصب (وهو الحجر الصغير الذى تُنقش عليه بعض الكلمات ويُترك عادة الكنيسة للذكرى) .

وتقدم أحد الرجال قائلاً " نعم يا سيدى " .

- أظن انه لن يكتب شئ عدا الأسم والسن .
- أرجوك لو سمحت ان تقرأ ما كتب مرة أخرى ، فأنى أظن أن هناك خطأ ما . قال الرجل وهو يشير الى العبارة المكتوبة " الطفل الوحيد المحبوب " .

وأردف الرجل قائلاً :

- أعتقد يا سيدى أن هذه العبارة يجب أن تكون " الأبن الوحيد المحبوب " .
- انت على حق ، سوف أصحح الخطأ .

وبعود الاب فى خطوات مسرعة الى العربة ، ووجهه مخبأ ، للمرة الأولى ، فى رادئه الأسود . ولم ير أحد محياه مرة أخرى فى ذلك اليوم ، ولم يعرف أحد ماذا كانت مشاعره ، وأفكاره ، وآلامه !

- " ياعمى العزيزة " ، قالت فلورنس فى الصباح التالى لمسز تشك " اخبرينى شيئاً اكثر عن أبى . هل هو كسير القلب جداً ؟ هل هناك ما أستطيع أن أفعله لكى "

- " يا طفلى العزیزة " ، قالت مسر تشك بسرعة " عما
تحدثین ؟ لا یجب أن تظهری نفسك له .. لا تحلمی بشئ
من هذا القبیل " .

وبأدئ الأمر لم تستطع فلورنس أن تفعل شیئاً سوى أن تبکی
وتتجول فی أعلى المنزل وفی أسفله . وكانت ، حین تتذكر ما
أصابها فجأة ، تسرع الی حجرتها ، وتتدفن وجهها فی فراشها
. لم تعرف عزاء أو سلوی ، ولم تكن تحس الا بمرارة الاسی
وقسوته .

وعند ما كان ینام أهل المنزل جميعاً ، وتطفئ كل الأنوار ،
كانت تترك غرفتها فی خفة ، وتتسل دون أحداث أى صوت
الی أسفل الی باب حجرة والدها ، حیت كانت تسند وجهها
ورأسها وتلامسه شفتيها ، وقد حبست أنفاسها . كانت أمنيتها
الوحيدة أن یسمح لها بأن تظهر له بعض الحب ، لکی تعزیه
فی ما أصابه . ولتحقیق هذه الأمنية كانت مستعدة لان تركع
عند قدمیه وتتوسل ألیه ، لو أستطاعت وتجرات .

ولكن لم یكن أحد یعرف لك ، كان الباب مغلقاً دائماً . وكان
الأب یعیش وحیداً منزعلاً . لا راها أبداً ولا یسأل عنها .
وربما لم یكن یعرف أنها فی المنزل .

وفلورنس لم تكن قد تعدت طور الطفولة الا بقلیل . كانت تبلغ
الرابعة عشر ، وكان من المحتمل أن تؤثر الوحشة والأفراد
فی ذلك المنزل الضخم فی نفسها وأعصابها ، وتؤدی بها الی
تصور مخاوف غامضة وخیالات مخیفة . غیر أن قلبها كان

مليناً بأفكار الحب ومشاعره حتى أنه لم يسمح لمشاعر الرعب والخوف بالدخول اليه .

ومن وفاة أخيها ، لم تكن الفتاة تستطيع أن تذهب ليلا الى فراشها ، دون زيارة باب غرفة والدها . وفي هذه الليلة ، ما أن لامست الباب حتى وجدته مفتوحاً . وشجعها أن رأت شعاعاً من ضوء من الداخل . ولم تلبث أن دلفت الى الغرفة فى خفة وسكون ، ويدها ترتعشان ، مدفوعة بالحب العظيم الذى فى داخل نفسها .

وكان والدها جالساً فى تفكير عميق ، وعيناه مثبتتان الى المائدة . وتحول بوجهه نحوها . قرأت ذلك الوجه كئيباً ، مجهداً ، تعساً .

- " بابا ! بابا ! تكلم معى يا عزيزى " .

وفزع لسماع صوتها وقفز من على مقعده .

- ما الأمر ؟ . قالها فى قسوة وتابع " لماذا أتيت الى هنا ؟
ما الذى افزعك ؟

والواقع انه لم يفزعها شئ سوى ذلك الوجه الذى تحول نحوها . أن الحب الدافئ الذى كان فى قلب الأبنة الصغيرة ، تجمد أمام ذلك الوجه ، ووقفت الفتاة ونظرت إليه ، وكأنها قد تحولت الى قطعة من حجر .

لم تكن هناك أية لمسات الحب أو الشفقة فى ذلك الوجه الصارم الجامد . كان يخلو تماماً من ملامح الاهتمام وأطراف الرقة والأنعطاف الأبوى .

هل كان دمبى قد رأى أمامه حينئذ من تخيل أنها المنافس الناجح لابنه الفقد ، والغريم الذى تتميز عليه بالصحة ، والقوة ، والنجاح ؟ أم أنه كان ينظر الى الفتاة على أنها المنافس الناجح له شخصياً فى اجتلاب عاطفة ابنه ومحبته ؟ أكان من الممكن أنه قد وجد من المؤلم أن ينظر الى جمالها الرائع ويتذكر ابنه الميت . ؟

وما اسرع ما يعرف الشخص المحب انه غير مرغوب فيه . وهكذا مات الأمل فى قلب فلورنس بعد أن وقفت وتفرست فى وجه ابيها .

- أننى أسالك يا فلورنس : هل انت مرتعبة ؟ هل هناك شئ ما جعلك تحضرين الى هنا ؟
- لقد اتيت يا أبى؟
- " على الرغم من ارادتى " ..لماذا ؟

وأدركت أنه يعرف لماذا أتت . لقد كان واضحاً على وجهه . اسقطت رأسها بين يديها ، وهى تتشنج فى بكاء طزيل خافت .

دعه يتذكر هذا الموقف فى تلك الحجرة فى السنوات القادمة . ان هذا المنظر قد يختفى من ذاكرته بسرعة ، كما يعتقد هو ،

ولكنه سيظل راسخاً هناك فى أعماق أعماق نفسه . أنه سوف يذكر هذا الموقف فى تلك الحجرة ، فى السنوات التالية .

وأخذها من ذراعها وكانت يده باردة مفككة .

- " انت متعبة ، على ما أرى " قال وهو يرفع الشمعدان ويقودها نحو الباب ، " وتحتاجين الى الراحة – هيا ، يا فلورنس لقد كنت تحلمين سوف أقف هناك لأضى لك طريقك على السلم . ليلة سعيدة ... "

وبينما كانت لا تزال مغطية وجهها ، أجابت وهى تبكى : ليلة سعيدة يا عزيزى بابا ، ثم صعدت السلم فى صمت . وبدأت بعد برهة وجيزة كما لو كانت تريد العودة اليه لولا خوفها وخشيتها . بيد أنه كان خاطراً عابراً ، لم يحفزها على تنفيذه أى مشجع . وظل أبوها واقفاً هناك بلا حراك ، والشمعدان فى يده ، حتى اختفى رداء طفلاته الجميلة فى الظلام .

دعه يتذكر كل هذا ، فى تلك الحجرة ، فى السنوات التالية من عمره .

وأخر مرة راقبها فيها من نفس المكان : وهى تصعد ذلك الدرج كانت تحتوى أخاها فى ذراعها . وهذا لم يحرك قلبه محوها الان ، بل زاد من صلابته . ودخل مستر دمبى الى حجرته ، وأغلق بابها ، وجلس فى كرسيه ، وأخذ ينتحب على ولده الفقيد .

الفصل الثالث عشر

(والتر يرحل بعيداً)

بدأ والتر كئيبياً محزوناً وهو يتلفت حواليه فى حجرة نموه العتيقة ويتخيل أنه بعد ليلة أخرى واحدة ، قد لا يراها على الإطلاق .

ولكن والتر كان فى نفس الوقت يفكر فى عمه العجوز . وهكذا ما أن عاد الى غرفته بعد أنتهاء عمل يومه الأخير فى لندن ، حتى نزل منها ثانية ليجلس الى عمه العزيز :

- " يا عمى " ، قال فى مرح ، وهو يضع يده على كتف الرجل العجوز " ماذا تريد أن ارسل لك من باربادوس ؟ " .
- الأمل يا عزيزى واللى . الأمل فى أن نلقتى ثانية على هذا الجانب من القبر ، أرسل لى من هذا الأمل قدر ما تستطيع .
- على أنك لن تنسى ما سوف ترسله لى يا عمى ، أليس كذلك ؟
- " كلا يا والتر ، كلا " . أجاب الرجل العجوز ، سوف ابعث إليك بكل شئ أسمعته عن مس دمبى ، ولا سيما الآن بعد أن غدت وحيدة منفردة ، يا لها من مسكينة ! على أننى أخشى الا يكون هذا الذى ابعث به عنها شيئاً كثيراً يا واللى .
- لو رأيته يا عمى ، قال والتر " أخبرها أننى قلت أننى لن أنسى وجهها الجميل ، ولا طبيعتها الحلوة الرقيقة .

فى هذه اللحظة ، أتت فلورنس وسوزان الى الدكان . ولم يرهما والتر فى الحال اذ كان ظهره الى الباب . ولكنه رأى عمه يقفز من مقعده .

- " ماذا يا عمى ! . صاح والتر " ما ذا فى الامر ؟
- فأجاب سول العجوز " مس دمبى ! " . وقبلت العم سول على خده ، قم أعطت يدها لوالتر .
- اسوف ترحل بعيداً ، يا والتر ؟ قالت فلورنس .
- أجل يا مس دمبى ، أمامى رحلة طويلة كما تعرفين .
- أن عمك حزين لفراقك بالتأكد . وأنا أيضاً حزينة يا والتر .

والتفت فلورنس الى العم سول ، الذى كان تملكه الدهشة كما يملكه الأعجاب . " اهكذا تموت سريعاً ؟ " قال سول العجوز . لقد ازداد جمالك كثيراً ! ولكنك لم تتغيرى . نعم ان ذلك التعبير الجميل كان أيضاً على وجهك الصغير فى سالف الزمان " .

- " هل تذكرنى " قالت فلورنس فى ابتسامة حلوة " حسن كنت مخلوقة صغيرة ؟ .
- يا سيدتى الصغيرة ، العزيزة . كيف يمكن أن انساك ؟ وفى هذه اللحظة التى دخلت فيها الى هنا ، كانوا واللى يتحدث معى بخصوصك ، وويترك لك رسائل و و
- حقاً . اشكرك يا والتر !

وبينما كانت تغادر المكان ، سألت والتر قائلة " هل تظن أنك سوف تغيب لفترة طويلة جداً ؟

- لا أعرف . أخشى ان يكون كذلك ، قال والتر . لقد قال مستر دمبى ذلك حين أمر بتعيينى هناك .
 - هل هى خدمة لمصلحتك يا والتر ؟ سألتها فلورنس ، وهى تتطلع فى لهفة الى وجهه ، واجابت تعبيرات وجهه قبل أن تنطق شفتاه . كان الجواب هو (كلا) .
 - " أخشى أن تكون غير مقرب الى أبى " قالت فى رقة ، " ولكنه سوف يشفى من حزنه العميق ، وربما يتحدث معى فى حرية وانطلاق ذات يوم . وعندئذ سوف اطلب اليه أن يعيدك الى هنا لاجل خاطرى "
- ولما احتلت فلورنس مقعدها فى العربى ، ناولتة ربطة صغيرة وهى تقول " لقد صنعت هذه الهدية الغيرة لبول . خدها مع حبى . والآن يا والتر ، ليبارك الله . لا تتسنى أبداً . أنك الان اخى يا والتر ، بعد أن مات بول .

الفصل الرابع عشر

(وجوه جديدة)

ذهب مستر دمبى لتناول الإفطار مع صديقه الميجور
باجستوك قبل أن يخرجها فى رحلة الى لمينجتون ذات يوم .

- " دمبى ، أننى سعيد برؤيتك . أننى فخور برؤيتك . لا
يوجد رجال كثيرون فى قارة أوربا يمكن أن تقول لهم
جوى باجستوك هذا الكلام – ولكن جوى فى الواقع فخور
بأن يراك ، يا دمبى " .
- يا ميجور أنك لطيف للغاية .

ولم يناقش مستر دمبى هذه النقطة . لقد كان فى وحدته
وانفراده سعيداً بصحبة الميجور . ولا يمكن أن يقال بأنه كان
يشعر بالميل العميق نحوه ، ولكنه كان يلين وينجذب لحديثه .

- لقد كنت تتطلع الى الطريق يا سيدى ... فهل
رأيت صديقنا ؟
- تقصد مس توكس ... لا يا ميجور
- تلك العجوز الغبية ... تتطلع الى أعلى ... فى
الزواج يا دمبى .
- أننى اسف لها

ورؤيت مس توكس فى تلك اللحظة فى نافذتها تروى زهورها

- " ان طموحك هو غباء يا سيدتى " قال
الميجور ، وهو يطوح يده فى الهواء فى اتجاه مس توكس
التى لم تكن تراه " ولو كان هذا الطموح يرتد الى اذنك
ليصمك بالغباء فحسب ، لما از عجنى فى شئ ، ولكن
يغيظنى أن تصبى القوم الكرماء الذين لا يشكون فى نيائك
فيكون هذا جزاؤهم على ! أكرامهم لك " .
- " يا ميجور " قالها دمبى ، وقد أحمر وجخ "
أرجو ألا تعنى بقولك هذا ان مس توكس من الغباء بحيث
أنها "
- يا دمبى ، أنا لا اعنى شيئاً . ولكن جوى
رجل محنك يا سيدى ، وجو يقول لك ، يا دمبى ، أن امرأة
طموح شريرة تسكن هنا .

وارسل مستر دمبى نظرة غاضبة فى ذلك الاتجاه .

وقبل أن تسير العربدة بعيداً ، لوحت مس توكس بمنديلها
الأبيض وهى تقف فى نافذتها . واستقبل مستر دمبى هذه
التحية ببرود شديد . وبدا على الميجور السرور الشديد لذلك .

ولم يجد مستر دمبى متعة أو راحة فى تلك الرحلة . كانت كل
الأشياء تبدو له مظلمة ، باردة ، وبلا حياة .
أن ولده قد ذهب ، وبقيت ابنته . لماذا تخير الموت موضوع
امله دونها هـى ؟ كان تفكير مستر دمبى يدور حول هذا الأمر
طوال الرحلة .

وفى الصباح التالى ، فى ليمنجتون أكان مستر دمبى والميجور
يسيران معاً ، عندما رأيا كرسيًا يجرى على عجلات ، قادماً

نحوها ، وبه سيدة جالسة . وعلى الرغم من أن تلك السيدة لم تكن شابة صغيرة السن ، إلا أن وجهها كان متورداً ، كما كانت ملابسها وحركاتها أقرب إلى ملابس الشابات وحركاتهن . وعلى جانب الكرسي ذى العجلات كانت تسير شابة صغيرة السن ، أنيقة جميلة ، ومتكبرة جداً .

- " يا عزيزتى أدت " ، قالها السيدة التى فى الكرسي فى نبرات بطيئة شاذة ، " هذا هو الميجور باجستوك " .

وهرول الميجور الى الأمام ، وأخذ يد السيدة التى فى الكرسي ورفعها الى شفتيه . ثم أحنى فى انخفاض شديد للسيدة الأخرى .

- " هل تسمحين لى أن اقدم لك صديقاً يا سيدتى ؟ . مستر دمبى ، مسز سكيون . مستر دمبى . مسز جرانجر . أن صديقى دمبى ، يا سيدتى ، هو رجل قوى معروف فى أضخم مدن العالم (لندن) ...

- لا يوجد من لا يعرف أهمية مستر دمبى .

قالت مسز سكيون .

وشكرها دمبى لهذه التحية بخفش رأسه . ثم ألتفت الى السيدة الشابة قائلاً :

- هل تعيشين هنا يا سيدتى ؟

- كلا ، لقد ذهبنا الى عدة أماكن كثيرة . أن ماما تحب التغيير .

- " أؤكد لك يا مستر دمبى " قالت مسز سكيتون " أننى من أنصار الريف المعجبين به . أننى لا احب المجتمعات . أن الأبقار تجتذبنى . وما اريده هو الوفاء والأخلاص . أننى أنشد الصراحة وعدم التكليف لقد أصبحنا نتصنع كل شئ بشكل مرعب فظيع . "

ثم دعت بعد ذلك مستر دمبى لزيارتهم فى أى مساء وانجنى الميجور ومستر دمبى . وحيثهم السيدة الكبيرة بحركة من يدها كالتى تلوح بها الفتيات . أما الشابة الصغيرة فقد احنت رأسها أنحناء خفيفاً للغاية

وتلقت الميجور ومستر دمبى وأخذا يتتبعانهم بعيونهما وهما تغادران المكان .

- " تبدو لى أنها راقية جداً " قال مستر دمبى .
- " راقية يا سيدى " أجاب الميجور " أن السيدة المبجلة مسز سكيتون يا سيدى ، هى أخت المرحوم اللورد فينكس ، وعمة اللورد الحالى . أن العائلة ليست غنية ، ولكن من ناحية الأصل والعراقة ، يا سيدى ، فأن " وأخذ الميجور يسير ويأتى بحركات كما لو كان لا يستطيع أن يعبر عن أفكاره بالكلام .
- أنت كنت تخاطب الأبنة ، كما لاحظت

...يقول يا مسز جرانجر

- " ادث سكيتون ، يا سيدى تزوجت الكولونيل جرانجر وهى فى سن الثامنة عشرة . ثم مات زوجها فى العام التالى لزواجهما . وهى الآن لم تبلغ العام الثلاثين من عمرها بعد .

ولقد كان فى أماكنها أن تتزوج بعد ذلك عشرين مرة ، لو لا أنها متكبرة جداً . .

وبعد ذلك ببضعة أيام ، عندما زار مستر دمبى والميجور مسز سيتكون ، وجداها مستلقية بين حواشى أريكة وثيرة . وكانت أدث تقف الى جوار آلة موسيقية تعزف عليها ، وهى تبدو أروع جمالا وأكثر كبرياء عما كانت عليه من قبل .

- " أرجو ، يا مسز جرانجر " ، قال مستر دمبى : وهو يقترب نحوها " ألا تكون نحن السبب فى أيقاف عزفك ؟ "

- أنتم ؟ . أوه ، لا

- لماذا اذن لا تستمرين ، يا عزيزتى أدث ؟ قالت مسز سكيتون .

- لقد توقفت كما بدأت . استجابة لهواى

- هل تعرف يا مستر دمبى ، أننى وحببتي أدث نكاد فى الواقع أن نختلف فى بعض الأحيان ..

- ليس تماماً ، فى بعض الأحيان ، يا ماما ؟ .

- أوه ليس تماماً أبداً ، يا حبيبتي . أن هذا لكفيل بأن يكسر قلبى .

وعندئذ قال مستر دمبى لادث " يبدو أنه لا يوجد لديكم اصحاب كثيرون هنا .

- كلا ، نحن لا نرى أحد

" الواقع " قالت مسز سكيثون وهى مستلقية على أريكتها ، أنه لا يوجد أناس هنا نهتم بأن نصطحب معهم .

ثم أنظر مستر دمبى الى عدد من الرسوم المتناثرة فى الحجرة ، وسأل أدث " هل ترسمين ؟ " .

- نعم
- وهل تعزفين ؟
- نعم
- وهل تغنين ؟
- نعم

وأجاب المرأة الصغيرة على كل هذه الأسئلة بطريقة غريبة ، كما لو كانت غير راغبة فى الأجابة .

- هل لى أن أومل فى سماعك ؟ قال مستر دمبى .

- اوه بالتأكيد ، اذا كنت ترغب فى ذلك .

وجلست الى قيثارها ، ونهض مستر دمبى ووقف يسمع الى جوارها ونهضت الشابة الجميلة المتكبرة بعد ما فرغت من أدائها وتلقت شكر مستر دمبى وثنائه بطريقة تظهر عدم الاهتمام ، ثم أتجهت مباشرة الى البيان واخذت تلعب .

وغنت ادث الأغنية الى غنتها ابنته الغير محبوبة لأخيها الميت . ولكن مستر دمبى لم يعرفها . ولو كان عرفها ، فأيه اغنية لفلورنس كانت لتحرك عواطفه .

الفصل الخامس عشر

(أنباء جديدة عن العم سول)

كانت فلورنس تعيش وحيدة فى المنزل الكبير الخاوى . ومر يوم أثر يوم وهى لا تزال تعيش فى وحدتها .

وكانت كثيراً ما نتخيل حياتها فى سيرة مختلفة ، فيما لو كان والدها يحميها ، حتى انها كانت ، فى بعض اللحظات تكاد تعتقد أن هذه الصورة حقيقة واقعة . وفى أحيان أخرى ، كانت تخال أن امها لا تزال حية ، وأنها تعانقها فى حب وسعادة وحنان . ولكنيا له من سجن وأسى ، حين كان يحل المساء ويهبط الظلام ، ولا أحد هناك يؤنس وحشتها ، ويخفف من لوعتها !! .

ولم يكن أبوها يعرف كم كانت تحبه . كانت صغيرة جداً ولم تكن تدرى كيف تعبر عن حبها . على انها عولت على الصير ومحاولة التعلم ، حتى يأتى يوم يعرف فيه أنها تحبه كثيراً .

واصبحت تلك فكرة حياتها كلها .

وفى ذات صباح ، قالت فلورنس لسوزان ينبر " كم مر من الزمن دون أن نحصل على أخبار من والتر !
- وقت طويل بالتأكيد يا مس فلوى . كما أن بيرسن يقول – ولكن ماذا يهمنا ما يقول !
- ماذا يقول يا سوزان ؟ هل تخبرينى ؟ .

- يقول أنهم لم يعرفوا من قبل سفينة ذهبت فى هذه الرحلة وتأخرت أنباؤها مثل تلك السفينة التى أقلت والتر .

- يجب أن ازور عم والتر هيا نذهب الى هناك فى الحال ، يا سوزان

واستقبلتهم العم سول عند الباب . وعلى المنضدة ، وفى جميع انحاء الحجرة كانت هناك خرائط يتتبع عليها العم التعيس خط سير السفينة المفقودة فى البحر .

ولاحظت فلورنس فى الحال أن هناك تغيرى فد اعترى الرجل العجوز .

- أنت لست على ما يرام ..- قالت فلورنس فى حنان – أنك قلق جداً ، أنا متأكد أنك لست على ما يرام " .
- أننى فى أحسن حال يمكن أن يكون فيها رجل فى مثل سننى .

وبينما شرعت فلورنس فى مغادرة المكان ، تناول العجوز يديها ورفعهما الى شفتيه ، ثم أسرع بها الى عربته فى الخارج بطريقة غريبة .

وفى الصباح التالى أوقف الكابتن كتلى ، الذى كان مع سول جلز حين زارته فلورنس ، بواطسة روب الغلام الذى كان يعمل فى الدكان .

- ما الأمر . زار القبطان

فقدم له (روب) حزمة من المفاتيح وطرده مغلق .

" وعندما استيقظت هذا الصباح ، قال روب ، وجدت هذه على وسادتي . وكان باب الدكان مفتوح ومستتر جلز غير موجود " .

وما أن تناول القبطان الربطة حتى فتحها وقرأ الان :

يا عزيزى نِد كُتل ، على هذا توجد وصيتى لا تفتحها قبل مضى عام . أو عندما تحصل على أخبار أكيدة من عزيزى والتر . وإذا لم يصلك شئ منى أو لم ترنى مرة أخرى فتذكر صديقاً قديماً ، سوف يذكرك فى حب وحنان حتى النهاية . وأرجوك أن تحتفظ لوالتر ببيت فى المكان القديم ، حتى نهاية الوقت الذى ذكرته ، على الأقل لا تبحث عني ، فسوف يكون ذلك دون جدوى ، ووداعاً يا عزيزى ، من صديقك المخلص . سولومون جلز .

وخشى القبطان أن يكون صديقه العجوز " سول جلز " قد أنتخر ، متأثراً بحزنه وقلقه على والتر .

وبحث الكابتن عن صديقه القديم فى كل مكان بالمدينة . وظل أسبوعى كاملاً يقرأ أسماء المفقودين ومن عثر عليهم فى جميع الصحف ، وكان يخرج كل ساعات النهار ليتعرف على سولومون جلز .

وأخيراً يأس الكابتن كتل ، وشرع يفكر فيما يجب عمله بعد ذلك وشعر القبطان بان الاحتفاظ بمنزل والتر فى المكان القديم هو أول واجباته . وهكذا قرر الكابتن أن يعيش حيث كان يمتلك يولومون جلز دكانه . وان يستأنف عمله فى صناعة الادوات الصغيرة ، ويرى ماذا سيكون من ذلك .

ولكنه كان يعلم أن ذلك يستلزم تركه لجناحه فى منزل مسز ماكستينجر ، وأنها لن توافق على ذلك إطلاقاً ، وسوف تمنعه بكل وسيلة . ولهذا قرر الكابتن الهرب منها .

وذهب القبطان لمنزل ماكستينجر للمرة الاخيرة .

- هل تسمحين يا سيدتى ؟ قال الكابتن " وضميره يؤنبه بشدة " هل تسمحين بقبول أيجار ثلاثة شهور مقدماً ؟ " .
- " ولماذا يا كابتن كتل ؟ " . أجابت السيدة فى حدة او هكذا ظن أنها تتكلم معه بحدة .

وارتعب الكابتن جداً .

- أننى لا أجيد الاحتفاظ بنقودى يا سيدتى . أكون شاكراً جداً لو قبلت .
- حسنا ، يا كابتن كتلى ..أنا لا أستطيع أن ارفض هذا الطلب .
- وهل تسمحين ، يا سيدتى . باعطاء ثمانية عشر بنساً لكل فرد من صغار العائلة .

وهناك هرع اليه اطفال مسر ماكستينجر كخلية النحل ومكثوا معه ، الى أن اضطر الكابتن أسفاً حزيناً لصرفهم وفي سكون الليل وضع الكابتن أشياءه الثقيلة فى صندوق ، قاصدى تركها هناك ، وربما الى الابد ، الا اذا وجد يوماً ما رجلاً جريئاً شجاعاً يستطيع أن يأتى الى المنزل فى طلبها . وفى منتصف الليل ، أطلق الكابتن لساقيه العنان .

ولا يستطيع أن أسف ما قاساه الكابتن فى اليوم التالى من فزع ومخاوف كلما رأى قبعة امرأة تمر فى الطريق ، كما لا يستطيع أن أحصى عدد المرات التى قفز فيها خارجاً من الدكان ليتجنب من تخليهم عائلة ماكستينجر هاجمين عليه .

على أن الكابتن كتل ، قد أستطاع مع كل ذلك ، أن بفحص الدكان ، ويدخل عليه قليلاً من التحسينات .

الفصل السادس عشر (أدث المتكبرة)

كان الوقت ظهراً حين وصل الميجور الى حجرة مسز سكيوتون ، ووجدها مستلقية على أريكتها كعادة تحتسى كوباً من القهوة .

- أجلس ، قالت السيدة " أجلس بعيداً جداً عني ، لا تقترب مني ، فأنا متعبة هذا الصباح " .

ثم سألته مسز سكيوتون عن حال صديقه .

- " دمبي ، يا سيدتي " أجاب الميجور ، " هو خير حال يمكن أن يكون فيها رجل في مثل حالته . أنه في حال تعس يا مدام . أنه واقع في الحب ، هذا الدمبي " .

- " لا أستطيع ان افهم ما ترمى إليه " ، قالت مسز سيكيوتون . " هناك إشارة الى ادث في كلامك . أنظن أنه جاد في ذلك ، يا عزيزرى الميجور ؟ هل تنصح بالتحدث اليه ، أو يتركه لحاله ؟ " .

- " هل سوف نزرجه لأدث جرانجر ، يا سيدتي ؟ " قال الميجور وهو يضحك ويقهقه بشدة .

- " كيف نستطيع أن نزرجه ؟ " تساءلت المرأة .

- " أن دمبى يا مدام " قال الميجور ، " صيد ثمين . ودمبى ، يا مدام جاد فى رغبته . أتركى دمبى لحاله يا مدام . افعلى كما فعلت من قبل ؛ لا تفعلى أكثر من ذلك ، وثقى بجوزيف باجستوك الى النهاية " .

- " هل تظن هذا حقيقة يا عزيزى الميجور " . قالت مسز سكيوتون .

- " أننى متأكد من ذلك ، يا سيدتى . أن السيدة الجميلة مسز سكيوتون، وصديقتها باجستوك سوف يتحدثون كثيراً عن ذلك فى المستقبل ، فى زهو وانتصار ، حين يشاركان فى ثروة منزل ادث دمبى " .

وتوقف الميجور فجأة لينطلق فى قهقهة عالية ، ثم لم يلبث أن أردف فى لهجة جادة " ان مستر كاركر ساعد دمبى الأيمن ، قد حضر " .

- هذا الصباح ؟ سألت مسز سكيوتون .

- " نعم . هذا الصباح " أجاب الميجور ، وتابع " ان مستر دمبى يريد من مستر كاركر أن يجمع له المعلومات عن أدث دون ان يخبره دمبى بشئ ما اذ ان دمبى متكبر ، يا سيدتى ، كشيطان الكبرياء ذاته " .

- " خصلة بديعة " ، قالت مسز سكيوتون بعد ما غادر الميجور الحجرة " أين كنت ؟ " .

- " لقد قلت لى أنك مشغولة فبقيت بعيداً " اجابت دون أن تدير رأسها .

وكان الأزدرء الهادئ الساكن يلوح على وجهها الجميل .

- " يا ابنتى العزيزة " ، بدأت مسز سكيئون .
- " لست بعد امرأة " ، قالت ادث بابتسامة .
- " يالك من غريبة الأطوار اليوم يا عزيزتى !

لقد أتى الميجور باجستوك بأحسن تحية من مستر دمبى ، وهو يقترح بأن نتناول معه الإفطار غداً ثم نركب الى (وارويك) و (كينلورث) . هل تذهبين يا أدث ؟

- هل اذهب ! قالت : وقد احمر وجهها جداً ، وأخذت تتنفس بصعوبة وهى تنتظر الى امها .

- " أعلم أنك سوف تذهبين ، يا عزيزتى " قالت الأم دون اكتراث " هاك خطاب مستر دمبى يا ادث " .

- اشكرك . لا رغبة عندى لقراءته "

- " أذن يحسن أن أرد عليه بنفسى " قالت مسز سكيئون .

وفى المساء التالى ، بعد رحلة مع مستر دمبى والميجور مستر كاركر جلست السيدتان بمفردهما . وكانت مسز سكيئون مستلقية على أريكتها . أما أدث فكانت تجلس صامتة على انفراد ، الى جوار قيثارتها .

وأخيراً قالت مسز سكيثون فى حدة .

- " لماذا لم تخبرينى أنه على موعد هنا فى الغد ؟

- " لأنك تعرفين ذلك ، يا أماه " ...اجابتها ادث فى تهكم .
ثم أردفت تقول " أنت تعرفين أنه قد اشترانى ، أو انه سوف
يشترينى غداً . لقد فكر فى الصفقة واخبر صديقه بها . انه
فخور بهذه الصفقة . أنه يظن أنها تلائمه ، وأنها قد أبتعت
رخيصة الثمن ياللتعاسة أن اعيش لأرى هذا " .

- ماذا تقصدين ؟ اجابت الأم الغضبية ، " ألم تكونى منذ
طفولتك "

- " طفلة ! " قالت ادث ، وهى تتطلع اليها . " متى كنت
أنا طفلة ! ما الطفولة التى تركتها لى يوماً ما ؟ لقد كنت قبل
أن أعرف نفسى أو أعرفك امرأة ماكرة ، مختالة ، ترسم
الخطط ، وتلقى الشباك للرجال " .

ثم أردفت وهى تدق بيدها على جيدها الناصع الجميل "
أنظرى الى أنا التى لم اعرف أبداً ما هو الحب المخلص
والقلب الأمين . لقد تزوجت فى شبابى الباكر من رجل لم
اشعر نحوه إلا بعدم الأكتراث أنظرى الى . بعد أن أصبحت
أرملة – ماذا كانت حياتى لمدة عشر سنوات منذ وفاته ؟

- " لقد كنا نبذل كل جهد للحصول على زوج نحنى "
أجابت الأم . هذه كل حياتك ، لقد كان يمكنك الزواج بزواج

طبيب يا ادث عشرين مرة على الأقل ، لو كنت قد قدمت التشجيع الكافى " .

- " أننى أحتقر نفسى " ، قالت ادث . " كل ما أستطيع أن أقول هو أننى لم أحاول ايقاع هذا الرجل " .

- " هذا الرجل ! أنت تتكلمين كما لو كنت تكرهينه " .

- " أتريدين أن اخبرك " قالت ادث ، وعيناها مثبتتان على أمها " من هو الذى يعرفنا تماماً ، والذى اشعر أمامه بالهوان وفقدان الثقة أكثر من شعورى بذلك أمام ضميرى ونفسى ؟

- " هذا هجوم على الرجل المسكين الشئ الحظ ، الذى يدعى مستر كاركر على ما أظن ! . أجاب الأم ببرود وضغطت ادث بيديها على وجهها ، وارتحف جسدها كله . ثم خرجت من الحجرة ، فى خطوات ثابتة منسمة **بالتعالى والكبرياء ، كعادتها .**

الفصل السابع عشر

(تغييرات فى المنزل)

بينما كان مستر دمبى فى ليمنجتون ، كانت فلورنس تمسكت مع أصدقائها .

وعند عودتها الى المنزل أخبروها أن والدها يريد التحدث إليها واسرعت فلورنس وهى وجلة خائفة الى الدور السفلى . وكانت تفكر فى طريقها إليه فى هل تقبله أم لا . ولكن قلبها كان تواقى اليه . ولهذا صممت أن تقبله .

غير أنها لم تجده جالسا بمفرده . كانت هناك سيدتان بالحجرة وتوقفت فلورنس .

- " فلورنس " قالها لها ابوها ، وهو يمد نحوها فى برود ويسألها " كيف حالك ؟ " .

وتناول فلورنس يده ، ورفعتها الى شفتيها فى رقة وحياء ، ولكن سحب يده بسرعة .

- ادث . هذه هى ابنتى فلورنس . فلورنس ، هذه السيدة سوف تصبح فى القريب العاجل بمثابة والدتك .

- " اوه ، يا بابا ، ليتك تصبح سعيداً ! ليتك تصبح سعيداً جداً جداً طيلة حياتك ! " ثم أستلقت الفتاة وهى تبكى

على صدر السيدة . وضمت السيدة الجميلة فلورنس الى صدرها . وانحنى فوقها ، وقبلت خديها .

- " هل سوف تمر فى الحجرات " قال مستر دمبى ، " ونرى ما يقوم به العمال ؟ " وقدم ذراعه لمسز سكيتون وهما يخرجان من الغرفة .

- " فلورنس لن تبدائى بكرهى ؟ " .

- " بكرهك أنت ، يا ماما " صاحت فلورنس ، وهى تلف ذراعها حول عنقها .

- " ابدئى بأن تظنى بى حسناً " قالت السيدة الجميلة " ابدئى بالثقة بأنى سوف أحاول أن اجعلك سعيدة ، وبأنى مستعد لان احبك " . يا فلورنس . وداعاً . سوف نتقابل قريباً .

ومرة أخرى ضمت فلورنس الى صدرها ، ثم تركتها تضم الى الآخرين .

وعندئذ أخذت فلورنس تؤمل فى أنها سوف تتعلم من أمها الجديدة الجميلة كيف تستحوذ على حب والدها .

الفصل الثامن عشر

(قبل الزواج)

كانت فلورنس جالسة ذات يوم فى غرفتها ، تفكر فى السيدة ، حين رفعت عينيها قرأتها واقفة فى مدخل الباب .

- " ماما " صاحت فلورنس فى فرح .
- " لست بعد ماما " ، قالت السيدة فى ابتسامة جادة ، وهى تضع ذراعيها حول عنق فلورنس .
- " ولكنك سوف تصبحين كذلك قريباً جداً " صاحت فلورنس
- " قريباً جدى يا فلورنس ! قريباً جداً . هل كنت وحيدة منذ أن تركتك آخر مرة ؟ " .
- " أنا ... أناأنا معتادة على الوحدة " ..أنها لا تهمنى على الإطلاق " .

وجلست أدث تتطلع اليها بعينها اللتين يشع منهما الذكاء . وأخذت فلورنس تفكر كيف أن جمال هذه السيدة مختلف عما كانت تتوقعه .

لقد كانت تظنه من النوع المتكبر ، بيد أنها بدت هادئة رقيقة تدعو الى الثقة والأرتياح . وبعد أن تحدثا بعض الوقت ، واخبرت فلورنس انها أتت اتأخذها الى بيتها الخاص .

- " سوف تمكثين معنا الى أن اتزوج " قالت
ادث . " ارغب فى أن يعرف كل منا الآخر ، ويثق به جيدى
يا فلورنس " .
- " أنت لطيفة جداً معى ، يا أمى العزيزة " .

" دعينى أقول لك الآن ، لان هذه تكون الفرصة المناسبة "
قالت ادث وهى تتلفت حولها لتتأكد من أنها منفردتان ،
وتتحدث فى صوت خفيض " دعينى اخبرك بأنه حين أتزوج
واسافر لبضعة أسابيع ، يجب أن تعودى الى منزلك هنا ، لأن
هذا يجعلنى فى راحة أكثر . لا يهمنى أى شخص يدعوك للبقاء
. عودى الى منزلك هنا . أننى اعرف جيداً ان افضل مكان لك
هو منزلك ...ياعزيزتى فلورنس "

- سوف أعود الى المنزل فى يوم الزفاف ...يا
ماما
- أننى أعتد على وعدك هذا . والآن ، هيا
اعدى نفسك للذهاب معى يا بنتى العزيزة .

وقالت مسز سكيوتون عند دخول ابنتها مع فلورنس " كيف حال
حبيبتي فلورنس ؟ يجب أن تأتى وتقبلىنى " .
فذهبت فلورنس وقبلتها .

- " لقد سمعت دون شك يا عزيزتى الصغيرة
" اردفت مسز سكيوتون " أن أباك الذى نحبه جميعاً لدرجة
العبادة ، سوف يزف الى حبيبتي ادث بعد أسبوع من اليوم "

- لقد علمت ان الزفاف قريباً جداًولكنى لم اكن اعرف التاريخ (فلورنس) .
- " يا عزيزتى ادث " قالتها أمها فى فرح "
- أمن الممكن انك لم تخبرى فلورنس ؟ " .
- ولماذا اخبر فلورنس ؟ تساءلت ادث فى حدة وصرامة أثارت دهشة فلورنس .

وعندئذ اخبرت مسز سكيوتون فلورنس بأن اباها سوف يحضر لتناول الغداء . وارتكبت فلورنس عند سماع ذلك . وكلما اقترب الوقت أنفاسها . ولم تجرؤ على الذهاب قرب النافذة خشية أن يراها من الشارع ولم تجرؤ على الصعود الى الدور العلوى لأخفاء عواطفها خشية أن تقابله فجأة ، وهى تمر خارجة عند الباب .

" أننى أسمع الآن ! صاحت فلورنس وهى تقفز فجأة . أنه آت واثر صوت مستر دمبى الغريب فى ابنته بشدة . وجرت الفتاة إليه ووضعت يديها حول عنقه ، وقبلت وجهه ، ثم أسرعت خارجة من الحجرة .

وهكذا اوشكت استعدادتك أخيراً على الانتهاء يا عزيزى دمبى حتى ترتيبات المحامى ؟ (مسز سكيوتون) .

- " نعم ، يا مدام لقد اخبرونى المحامون بان الحجة قد أصبحت معدة جاهزة . وعلى ادث أن تتكرم بتحديد موعد لإنهاء العمل .

وجلس ادث كتمثال رائع بديع ، فى جماله ، وبروده ، وسكونه

- " ليس لدى ما اقترحه . سوف نكون ذلك حتى تريد وترغب ، قالت وهى لا تكاد تنظر الى دمبى " لا توجد لدى مواعيد " .
- لا مواعيد يا عزيزتى ادث ! قالت له بينما لديك الف موعد مع كل أنواع التجار ! .
- أنها من صنعك ، انت ومستتر دمبى تستطيعان ان ترتبا هذه الأمور بينكم (ادث) .

ولم يكن مستر دمبى ليعترض على طريقة زوجة المستقبل أو يتمتع منها . لقد كان على العكس ، سعيداً بالظن أن هذه المرأة الجميلة المتكبرة سوف تمتعه وتسليه فى حسن أنها سوف تكون باردة مع اصدقائه وضيوفه كما كان هو معهم شخصياً .

ومر الأسبوع سريعاً . وتعدد خلاله الزيارات لحال القبعات وملابس السيدات والخياطين وتجار الجواهر والمحامين وباعة الزهور ومحلات الحلوى والفطائر ، كل ذلك استعداداً للزفاف . وكان على فلورنس أن تذهب الى حفل الزفاف . وكان عليها ، تبعاً لذلك ، أن تخلع ملابس الحداد وترتدى فستاناً جميلاً لتلك المناسبة .

أما أدث فكانت لا تنظر الى شئ ، ولا تهتم بشئ . وفى الليلة الأخيرة من الأسبوع ، قالت مسر سكينتون لمستر دمبى :

- " يا عزيزى دمبى ، سوف تترك لى فلورنس غداً ، عندما تأخذ منى حبيبتي الغالية الحلوة أدث " .

فأجاب مستر دمبى ، بأنه سوف يفعل ذلك بسرور .
فأدراات ادث رأسها فجأة . وتحول عدم أكرائتها فى لحظة
خاطفة الى اهتمام شديد بالغ . وأخت تنصت بانتباه لما يقال .

ولما اصبحا منفردين اخيراً ، تركت ادث النافذة للمرة الأولى
فى ذلك المساء ، وانت الى امها .

- " أصغى لى ، يا أمى " قالت ادث ، " يجب
أن تبقى هنا بمفردك حتى أعود ، والا اقسم بأنى سوف
ارفض الزواج بهذا الرجل فى الكنيسة .
وتطلعت الأم لابنتها بنظرة يبدو فيها الفزع .
- " أنه يكفى " قالت ادث بثبات " أن نكون
على ما نحن عليه ، أننى لن اسمح بفساد مخلوقة بريئة
لأرضى الف أم مثلك . أنت تفهمين ما أعنى تماماً . أن
فلورنس يجب أن تعود الى منزلها " .
- " أنت بلهاء يا ادث " صاحت الأم الغضبية .
هل تتوقعين أنه يمكن لك أن تعيشى فى سلام فى ذلك المنزل
ما لم تتزوج فلورنس وترحل بعيداً عنه ؟
- " أسالينى أو أسالى نفسك ، اذا كنت أتوقع
السلام أبداً فى ذلك المنزل ، وأنت تعرفين الجواب . لقد قلت
أن فلورنس يجب أن تعود الى منزلها .
- " دعيها تذهب " صاحت الأم ، " ماذا يهمنى
أنا من هذه الفتاة ؟ " .
- " أنها تهمنى كثيراً " قالت ادث . " أنها تفسد
بالدروس التى تلقتها ، طالما استطيع أن امنع ذلك . سيرى
فى طريقك الخاص يا أماه شاركى كما يحلو لك فيما كسبت ،
اصرفى المال ، وتمتعى به ، وكونى سعيدة كما تريدين . لقد

نلنا الغرض من حياتنا . أننى اصفح عن دورك فى شرور
الغد وآثامه . ويا ليت الله يصفح عما قمت به أنا من دور " .
ثم ألقى بتحية المساء الى والداتها وذهبت الى غرفتها الخاصة
. ولكن روحها القاتمة المتعبة لم تستطيع أن تنل الراحة .
فهناك فى أعماق الليل المدلهم ، شرعت ادث جرانجر تفكر
فى زواجها ، وحسدة بلا صديق ، صامتة لا تتكلم ، متكبرة لا
تشكو برح الخفاء .

وأخيراً لمست ادث ، دون قصد الباب مفتوح الذى يؤدى الى
الغرفة التى كانت ترقد بها فلورنس فى ملئ شبابها وجمالها .
وأحست ادث أنها منجذبة نحوها . واقتربت ادث من فراشها .
وطفرت الدموع من عينيها وهى تركع على ركبتيهما ، وتضع
رأسها المتصدع على الوسادة الى جوار الفتاة النائمة .
وهكذا أمضت ادث جرانجر الليلة التى سبقت يوم زفافها .

الفصل التاسع عشر (الزفاف)

عند باب الكنيسة فى ذلك اليوم ، كان القوم ينظفون الفناطس والحشايا والسجاجيد ، ويتحدثون عن حفل الزفاف .

وفى منزل مستر دمبى ، فى نفس الوقت ، كانت هناك حركة وضجيج وعجيج . وترك مستر دمبى حجرة ارتداء ملابسه وصعد الى الى غرفة الاستقبال فى سترته الجديدة الفخمة .

وُفِّرِع الباب ، ودخل الميجور فى ملابس أنيقة كذلك .

وركب مستر دمبى ، وميجور باجستوك ، ومستر كاركر الى الكنيسة معاً . ثم صار هناك زحام على الباب . ودخلت السيدة الجميلة فى خطوات ثابتة متعالية ، لا يبدو على وجهها أى اثر لمعانة الليلة السالفة . ثم وقفت هادئة ، منتصبة ، ذات أجلال .

وقعت العروس بأَمْضائِها فى الكتاب المعد لذلك ، وأتى الجميع لتهنئتها .

ونزلت مس توكس ببطء من مكانها فى أعلى الكنيسة . وكانت عيناها حمراوتين ومنديلها مبللا . وعند التفكير فى مستر دمبى بكتب مس توكس مرة أخرى وهى فى طريقها الى المنزل .

أما مستر توتس ، صديق بول القديم فى المدرسة ، فقد غادر الكنيسة وقد جن حباً وشغفاً بفلورنس .

والآن ، وصلت العربات الى بيت العروس . وانهاى عليها مزيد من التهانى بهذا اليوم الذى يعد أسعد الأيام . وسرت مسر تشك لأن تجد ادث شامخة متكبرة ، بيطبعتها ، كآل دمبى تماماً .

وبعد ما تناول الجماعة افطارها ، نهض ابن العم فينكس والقى خطاباً قصيراً ، قوبل بالتصفيق الشديد ، ثم قامت ادث لترتدى ملابس السفر . وما أن ظهرت ثانية حتى هرعت فلورنس نحوها لتودعها . ولوحت ادث بيدها مودعة ، ثم اختفت سريعاً .

وأرعى الليل سدوله . وجلست فلورنس لتقرأ ، ولكنها لم تستطع القراءة تلك الليلة . وأغلقت كتابها الذى لم تستطع أن ترى كلماته بوضوح ، لأن سحابة كانت تستقر أمام عينيها ، وكانت أمها وأخوها الميت يشعان فى رداء من نور كالملائكة وسط تلك السحابة . ووالتر أيضاً ذلك المسكين المتغرب ، أوه ، أين هو الان .

الفصل العشرين

(أنباء عن تحطم سفينة)

كان كابتن كتل يعتقد أنه من المحتمل أن يدوم له الأمن والسلام طويلا كان يعرف شخصية مشر ماكستينجر القوية ذات الصلابة والعناد وكان يرجح أنها قد كرسست وقتها للبحث عنه والقبض عليه وهكذا " كان يعيش كابتن كتل حياة هادئة جداً ، ولا يغادر مسكنه الا بعد هبوط الظلام

ولم يكن الكابتن يفكر أبداً فى المقاومة ، فيما لو أمسكت به مسر ماكستينجر

ولكن اشياء أخرى بدأت تشغل بال الكابتن كان لم يسمع بعد شيئاً عن سفينة والتر أو عن سول جلز ولم يكن قد أخبر فلورنس باختفاء الرجل العجوز ، لأنه لم يجد لديه الشجاعة لذلك

وكان مساء بارداً مظلماً من أمسيات الخريف ، وكان الكابتن كتل قد أمر بأبقاد المدفأة داخل حجرة الجلوس الصغيرة وكان المظمر يسقط مدراراً والرياح تهب شديدة عاتية

وبينما كان الكابتن يقف بنظرة حزينة على وجهه ، وهو يفكر فى والتر ، قرع باب الدكان . وفتح الرجل فرأى شابا يقول :

- أوه ، كيف حالك يا مستر جلز ؟ .

وكانت هذه التحية موجهة الى الكابتن . ، وأردف الزائر قائلاً
دون توقف :

- " أشكرك ، أننى فى خير حال ، أشكرك . أن أسمى
توتس - مستر توتس " .

ثم أستأنف مستر توتس كلامه ثانية .

- " يا مستر جلز " .
- اسمى كتل .
- أوه! هل لم أستطيع رؤية مستر جلز لأنه ...
- انت لا تستطيع أن ترى سول جلز ، لأنه ليس هنا . أنا لا
أعرف أين ذهب ، ولماذا أخفى .
- ولكن يا الله ، أن مس دمبى لا تعرف ...
- ولماذا يجب أن تعرف ؟ سالها الكابتن فى صوت خفيض
" هل أنت قادم من عند مس دمبى ؟
- " أعتقد هذا " قال مستر دمبى وهو يقهه . " أننى أذهب
أحياناً لأزور مس دمبى . ولقد كنت فى زيارتها عصر اليوم
. وبينما كنت خارجاً ، ارتنى سوزان هذه الصحيفة ، قائلة
أنها قد أخفتها عن مس دمبى ، لأن بها نبأ عن شخص
تعرفانه هى ومس دمبى .

- " هل أقرأ لك هذا النبأ ؟

فأوما الكابتن . واخذ مستر توتس يقرأ الأتى من باب أخبار
السفن :

(بقلم \ سوئها ميتين .
أن السفينة ديفينس بقيادة هنرى جيمس التى وصلت اليوم الى
هذا الميناء تقرر أن رجال المراقبة قد رأوا قبل الغروب
بنصف ساعة ، بعض من قطع من حطام سفينة تطفوا على
بعد ميل تقريباً . وارسلت السفينة قارباً صغيراً لمعاينة الحطام
، فاكشف جزءى من مؤخرة السفينة ، استطاعوا أن يقرأوا
عليه الكلمات والحروف التالية " صن أند أي... " بسهولة . ولم
ترأيه اثار لجثث موتى على الحطام العائم . ولا شك فى أن
السفينة المفقودة " صن أند أير " التى كانت فى طريقها الى
باربادوس ، قد تحطمت فى الاعصار الأخير وأن كل شخص
على ظهرها قد لقي حتفه) .

- " والتر ، يا غلامى العزيز . وداعاً يا والتر لقد كنت
أحبك " . ثم تابع كتل كلامه وهو يتطلع الى نيران المدفأة "
لم يكن من دمي ولحمي ، ولم يكن له بنون ...ولكن أشعر
الآن عند فقد والتر ، بما يشعر به الأب التآكل عند فقد ولده
أخبر السيدة الصغيرة بأن كل شئ قد انتهى ..أنتهى !

- أوه ..أننى شديد الأسف حقاً . ولكن ماذا تظن أن مس
دمبى سوف تتأثر كثيراً يا كابتن جلز – أقصد ، يا مستر كتل
؟

- " ماذا ! " صاح الكابتن ، " عندما لم تكن مس دمبرى قد
شبت عن الطوق بعد ، كانا متحابين كزوج من الحمام
الصغير .

- " أَلحانا كذلك حقاً ، قال مستر توتس ، وقد سقط وجهه الى أسفل .

- " لقد خلق كل منهما لأخر " قال الكابتن في حزن ، " ولكن ما الفائدة الآن ؟ " .

الفصل الواحد والعشرون (الزوجان السعيدان)

الأشواء تبرق فى النوافذ هذا المساء ، ووهج النيران الأحمر يشع الدفء على الستائر والطنافس الناعمة البديعة المنظر .
والعشاء معد للتقديم ، والمائدة قد بسطن فى شكل رائع جذاب ،
مع أنها قد أعدت لأربعة أشخاص فقط . أنها المرأة الأولى
التي ينظم فيها المنزل للسكنى بعد التغييرات الاخيرة التي
أجريت عليه . وهم يتوقعون وصول الزوجين السعيدين فى أية
لحظة .

وأخيراً وصل الزوجان ! لقد وقفت عربة عند الباب . ونزل
مستر دمبى وعروسه وسارا الى الداخل .

- " يا حبيبتي أدث " صاح صوت على الدرج ، " يا
عزيزى دمبى ! " . ثم طوقت مسز سكينتون الزوجين
السعيدين بذراعيها . ونزلت فلورنس الى القاعة كذلك ،
ولكنها لم تتقدم . ورائها ادث ، وأسرعت لتقبلها .

- " كيف حالك يا فلورنس ؟ " قال مستر دمبى ، وهو يمد
أليها يده .

وبينما فلورنس ترفع يده الى فمها ، وهى ترتعش ، وقعت
عينها على عينيه . وكانت نظرتة باردة ، غير أنها رأت من
خلالها اهتماما وانعطافاً أكثر من ذى قبل . ولم تجرؤ على أن

تنظر فى عينيه ثانية ، ولكنها شعرت بأنه ينظر إليها مرة أخرى بحنان وأهتمام .

- " يا عزيزى دمبى " ، قالت مسز سكيون " لقد جعلوا من المنزل قصراً فخماً " .

- " أنه جميل " ، اجاب مستر دمبى ، وهو يتطلع حوله " كل ما تستطيع النقود أن تعمله قد عمل ، على ما أعتقد " .

- " وماذا لا تستطيع النقود أن تفعل يا عزيزى دمبى ؟ .. (مسز سكيون سألته) .

- أنها قوية جدى يا مدام .

ونظر الى زوجته ، ولكنها لم تفه بكلمة واحدة .

وأعلن حلول موعد العشاء . ومرت ادث أمام الأوانى والقطع الذهبية والفضية المرصوفة على الصوان الجانبى كما لو كانت أكواماً من القاذرات ، ولم تلق نظرة واحدة على الاشياء الجميلة من حولها . وأخذت مكانها الى المائدة للمرة الأولى ، وجلست الى الوليمة كالتمثال الساكن .

ولأن مستر دمبى نفسه ، كان كالتمثال الى حد بعيد ، فقد سر بأن يرى زوجته الجميلة باردة ، متكبرة لا تتحرك ! .

وحالا بعد تناول الشاى ، ذهبت مسز سكيون الى الفراش وكذلك غادرت ادث الحجرة فى سكون ولم تعد ثانية . ولما

دخلت فلورنس الى حجرة الصالون لم تجد أحداً هناك سوى والدها الذى كان يذرع الحجرة جيئةً وذهاباً .

- " عفواً " ، هل أخرج ، " يا بابا ؟ " قالت فلورنس فى تردد عند الباب :
- " كلا " أجاب مستر دمبى " تستطيعين أن تتدخلى وتخرجى من هنا كما تشائين يا فلورنس . هذه ليس حجرتى الخاصة " .

ودخلت فلورنس ، وجلست الى منضدة صغيرة بعيدة ، وقد وجدت نفسها للمرة الأولى فى حياتها منفردة بابيها .

وبعد أن سار فى أرجاء الغرفة بعض الوقت ، ذهب مستر دمبى وجلس فى أحد الأركان ، وغطى رأسه بمنديل ، واستعد للنوم .

وكان يكفى فلورنس ان تجلس هناك وتراقبه ، وهى ترفع بصرها الى كرسيه بين حين وآخر . كانت سعيدة بالظن بأنه يستطيع أن ينام بينما هى جالسة معه فى نفس الحجرة ، وأنه لا يتضايق من وجودها الذى كان يقلقه فى الماضى .

ماذا يا ترى كانت أفكارها تكون لو كانت قد عرفت أنه راقبها جيداً ، وأن المنديل الذى على وجهه كان يسمح لبصره بالتحرك ذات اليمين وذات اليسار . وأن عينيه لم تفارقا وجهه لحظة واحدة ؟ ؟ أنه ما أن ألقى بصره عليها ، حتى أضحى غير قادر على ان يحول عينيه بعيداً عنها .

هناك لحظات من الرقة والحنان فى حساة أقسى وأصلب الرجال – وأن مرأى فلورنس فى جمالها الأخاذ ، وقد استدرات الى امرأة مكتملة دون علمه وملاحظاته ، قد بعث الحنان والانعطاف فى نفس ذلك الرجل الجامد المتكبر . وكلما أطال النظر أليها ، زاد حنانه وانعطافه . لقد أمتزجت أنوثتها المكتملة بطفولتها التى كان يحبها ، فلم يستطع أن يفصل بين الأثنين – وشعر برغبة لأن يحدثها ويدعوها اليه . وكان على وشك أن يناديها قائلاً " فلورنس ، تعالى الى هنا ! عندما وقفت الكلمات فى حلقة لدى سماعه وقع خطوات على السلم . كانت هى أمراة ودخلت أدت الى الحجرة ، وقد استبدلت فستان العشاء برداء واسع فضفاض ، وحلت رابط شعرها . ولكن هذا التغيير لم يكن هو الذى أذهله منها .

- " فلورنس يا عزيزتى " قالت ادث ، " كنت ابحت عنك فى كل مكان " .

ولما جلست الى جانب فلورنس ، كاد مستر دمبى أن ينكر زوجته لما حل بها من تغير عجيب . لم تكن ابتسامتها الجذابة هى الشئ الوحيد الجديد الذى رآه منها ، ولكن طريقتها ، وأسلوبها ، ونبرات صوتها ، ورغبتها الشديدة فى أن تُبهج وتُسعد الفتاة الجالسة الى جوارها ، كل تلك الأشياء كانت جديدة عليه تماماً ، حتى أنه قال فى نفسه " عجباً ! هذه ليست ادث " .

- " أخفضى صوتك يا أمى العزيزة . أن أبى نائم " .

وتطلعت ادث الى الركن ، ورأى دمبى وجهها فى جلاء
ووضوح .

- " لم أكن اظن أنك هنا ، يا فلورنس . هيا ،
تعالى معى يا عزيزتى " .
- " بابا لن يتوقع أن يجدنى ، عندما يستقيظ ،
على ما أظن ؟ . (فلورنس تقول هذا ، وهى مترددة) .
- اتظنين أنه يتوقع ذلك ، يا فلورنس (قالت لها
ادث) .

وأحنت فلورنس رأسها الى الأسفل ، ثم لم تلبث أن نهضت .
ولفت ادث يدها حول ذراعها ، وخرجا من الحجرة كأختين
متحابتين ، ودمبى يرسل نظره إليهما خلسة ، وفى تعجب .

وظل دمبى ، بعد ذلك ، جالسا فى ذلك الركن من الحجرة ،
دون ان يحس بمرور الوقت . ودقت الساعة ثلاث دقائق قبل
أن يتحرك من مكانه فى تلك الليلة . وكان طيلة الوقت يبخلق
فى الموضع الذى كانت فلورنس جالسة فيه . واشتد اظلام
الحجرة ، بيد أن سحابة تجمعت على وجهه ، أشد أظلاماً من
الليل .

الفصل الثانى والعشرون

(حفلة تدشين المنزل)

قام مستر دمبى ومسز سكيوتون بتنظيم عدد من الحفلات ،
لمناسبة الزواج ، وللتعرف على رجال المجتمع الراقى
وسيداتاه . وتقدم مستر دمبى قائمة برجال الأعمال البارزين
لدعوتهم على العشاء . وقدمت مسز سكيوتون قائمة أخرى ،
بالنيابة عن أبنيتها التى لم تُبد أى اهتماماً بهذا الأمر .

وكان مستر دمبى يسير فى ملابسه الأنيقة الفخمة بقلق فى
قاعة الاستقبال ، فى انتظار حلول العشاء . وحضر أولاً مدير
أحدى الشركات العامة ، وكان رجلاً واسع الثراء ، واستقبله
مستر دمبى بمفرده . وكان ثانى الحاضرين مدير أحد البنوك ،
وكان يقلق عنه أنه يستطيع شراء أى شئ فى العالم .

وهندئذ ظهرت مسز دمبى فى أوج جمالها وكبريائها . وكانت
فلوورنس الى جوارها . ولما دخلا معاً ، أظلم وجه مستر
دمبى كما أظلم ليلة عودته الى المنزل مع عروسه .

وزاد عدد القادمين سريعاً ، ومن بينهم المديرين ، ورءساء
مجلس ، وأدارات الشركات وسيدات المجتمع ، وابن العم
فينكس ، والميجور باجستوك ، واصدقاء مسز سكيوتون .

وبينما فلورنس جالسة بمفردها ، أحست بالدور الصغير الذى يلعبه والدها فى كل ما يجرى حولها ، ورات ، فى ألم ، لم كان يبدو قلقاً ضيق الصدر .

وكانت مسز دمبى تستقبل ضيوفه فى برود وكبرياء . ولم تظهر رغبة أو اهتماماً فى ادخال السرور عليهم ، ولم تفتح فمها بكلمة واحدة بعد أن استقبلتهم .

واخيراً ، انصرف المدعون جميعاً ، ولم يبق بالحجرة سوى مستر دمبى ومستر كاركر ، الذين كانوا يتحدثان معاً ، ومعهما مسز دمبى وأمها .

وتقدم مستر كاركر الى الأمام فى تأدب ، ليستأذن فى مغادرة المكان ، وهو يقول :

- أرجو الا تتعب مشاق هذه الليلة البهيجة مسز دمبى فى الغد .

- " مسز دمبى " قال مستر دمبى " قد وفرت على نفسها التعب . أننى أسف لأن اقول ، بان مسز دمبى ، أننى اود لو كنت قد أتعبت نفسك أكثر من ذلك قليلا ، فى هذه المناسبة " .

فنظرت اليه فى كبرياء ، ثم حولت بصرها بعيداً دون أن تتكلم .

- " وأننى اسف يا مدام " وتابع مستر دمبى كلامه " أنك لم تعرفى أنه على وادبك أن تستقبلى أصدقائى باحترام اكثر من

ذلك . يجب ان اقول كل ، أن بعض هؤلاء الذين تجاهلتهم
الليلة ، يا مسز دمبى ، انما يشرفونك بأيه زيارة يؤدنها لك
".

- الا تعرف ان هناك شخصاً اخر فى هذا المكان ؟ .
أجابت ادث وهى تنظر اليه بثبات .

- " كلا ! يا كاركر ! أرجوك لا تتصرف " . صاح مستر
دمبى !! مستر كاركر ، كما تعرفين يا مدام ، هو موضع
ثقتى " .

- " ارجو أن تسمح لى بالانصراف " ، قال مستر كاركر .

- " لقد ذكرت لمسز دمبى " قال مستر دمبى فى لهجته
المتعالية " الشئ الذى أعترض عليه فى سلوكها والذى
انتظر أن تعالجه وتصححه " ثم أردف وهو يؤمى برأسه
لكاركر " كاركر ، أرجو لك ليلة سعيدة " .

- ولم تنبس الزوجة بنبت شفة . كانت تتطلع مبخلقة اليه ،
ثم لم تلبث أن ارخت عينيها بأزدراء عميق ، كما لو كان
غير جدير بأن يتحدث اليه .

هل كان مستر دمبى ، فى تلك الليلة ، واقفاً فى الظلام بمحض
الصدفة ، حين رأى زوجته بعد ذلك بساعة واحدة ، قادمة
بالشموع فى يدها من الغرفة التى ترقد بها فلورنس ، وقد تغير
وجهها كلية . ذلك الوجه الذى لم يقو هو أبدى على تغييره ؟ .

الفصل الثالث والعشرون

(مسز ماكستينجر تجد كابتن كتل)

كان كابتن كتل جالسا مع صديقه مستر بنسبي ، يبحثان وصية جلز (التي فتحها الكابتن بعد مرور سنة كما طلب صديقه العجوز) عندما حدث شئ ما . وكان هذا الشئ مرعباً ، حتى أنه لولا مساعدة الصديق بنسبي ، لأضحى الكابتن كتل فى عداد المتى من تأثير تلك الساعة الرهيبة .

كيف أن الكابتن يؤمئذ أغلق الباب فقط ، دون أن يحكم الرتاج من الداخل ، فهذا سر غامض لم نعرف حتى الآن له تفسيراً . ولكن الذى حدث نتيجة لذلك السهو أم الأهمال ، هو أن مسز ماكستينجر لم تلبث أن أقتحمت الباب فى خفة وسرعة ، حتى ان كابتن كتل وجد نفسه فجأة يتطلع إليها فى ذعر شديد ، وقد سحب وجهه ، وارتجف بدنه من قمة الرأس الى اخص القدم .

ولكن ما أن تملك الكابتن نفسه بعد برهة وجيزة ، وادرك ما زقع فيه من مأزق ، حتى أندفع نحو الدرج ، غير مكترث بما قد يلحق به من أذى . كان لا يفكر لحظئذ الا فى اخفاء نفسه ولو فى باطن الأرض .

- "أوه ، كابتن كتل " صاحت مسز ماستينجر وهى توقفه " أتجرو على أن تنظر فى وجهى ، ولا تطأئ رأسك خجلاً ! .

وكانت لا تبدو على الكابتن أى جرأة أو شجاعة .

- " أوه ، لقد كنت حمقاء حين وضعت الثقة فى غير محلها وأويتك فى منزلى يا كابتن كتل ! . صاحت مسز مكاستينجر " لا يوجد أحد فى شارعنا لا يعرف أننى كنت أخسر نقودى من جراء شراحتك فى المأكل والمشرب " .

وتوقف المرأة لتلتقط انفاسها .

- " ثم بعد ذلك تهرب منى ! أردفت مسز مكاستينجر وهى تصيح " وتختفى عنى عاماً بأكمله ! يا كابتن كتل ، اريد أن اعرف ما إذا كنت ستعود الى المنزل . "

وبدأ على الكابتن الاستعداد لأن يذهب معها . وقال لها فى ضعف وخوف " قد أذهب ، ولكن لا تحدثنى بهذه الضجة " .

- " آى ، آى ، آى " قال بنسبى وهو يهدئها " ها ، ارحلى يا سيدتى الصغيرة " .

- " ومن تكون أنت . " سألته فى تعظم وكبرياء .

وذهل الكابتن حين رأى صديقه بنسبى يقنع تلك المرأة العاتية بالتدريج ، ويعود أليها بزجاجة من الروم (نوع من الخمر) ، ويهدئ من أعصابها الثائرة ، دون أن يبدو أنه يقول لها شيئاً . ثم لم يلبث بنسبى أن ارتدى سترته وهو يقول " يا كتل ، أنا ذاهب لمرافقتها الى المنزل ، ولم مر الوقت ولم يظهر بنسبى ، راودت الكابتن الشكوك وخشى ان مسز مكاستينجر قد احتفظت بصديقه رهينة لحين حضوره . وعندئذ فكر الكابتن ،

كرجل ذى شرف ، فى أن يضحى بحريته الشخصية فى سبيل
اعتناق صاحبه .

أخذت تلك الأفكار كلها تشغل عقل كابتن كتل طويلا دون أن
يحضر مستر بنسبى . وأخيراً ، عندما يأس الكابتن ، وشرع
فى خلع ملابسه ، سمع صوت عجالات تقترب نحو المنزل .
ولم يلبث مستر بنسبى أن دخل محيياً .

وارتعب الكابتن للظن أن مسز مكاستينجر قد عادت فى نفس
العربة ، وأنه لن يستطيع التخلص منها .

ولكن بنسبى كان لا يحمل معه سوى صندوق كبير ، سرعان
ما عرف الكابتن أنه صندوقه الخاص الذى كان قد تركه فى
منزل مسز مكاستينجر .

وما أن ترك الكابتن بمفرده مرة أخرى ، حتى شرع يفكر ثانية
وبعمق فى صديقه سول جلز العجوز . كان الكابتن لم يفقد
الأمل بعد فى عودة ذلك الصديق ، وكان يظن أنه قد يراه يوماً
ما ، ولكن سول العجوز لم يأت .

الفصل الرابع والعشرون

(علاقات منزلية)

كان مستر دمبى يتصرف نحو تجاه زوجته الأولى بكبرياء وبرود ، كشخص أعلى وأعظم منها ، اذ كان يخال نفسه كذلك . وكان يظن أن الشخصية المتعالية لزوجته الثانية ، سوف تضاف الى شخصيته هو ، مزيد من العظيمة ! . ولم يكن يفكر أبداً فى أماكن وقوف هذه الشخصية ضده .

نعم أن القدر المكتوب عليه ، كان هو ان يخضع ويُجرد من سطوته ، حيث كان يبغي القوة والسلطان والسطوة .

متى كانت تلك التى استطاعت أن تكسب زوجته . كما أكتسب قلب ابنه من قبل ؟ من كانت هى ، غير تلك الصبية الوديدة ، التى كان هيتطلع اليها دائماً فى قلق وخوف ، خلال طفولتها التى قضتها بلا أم ، خشية أن يكرهها يوماً ما ، والتى وقع فعلاً ما كان يخشاه بخصوصها ، لأنه كرهها ذات يوم فى أعماق قلبه ؟

لقد كان هو وهى دائماً غريبين أحدهما عن الآخر . كانت لا تشبه فى شئ . وكان جمالها يجذب الناس الذين لا يجذبون اليه .

وفى مواجهة كبرياء ع وعجرفته ، كانت تقف كبرياء زوجته فى ملئ قوتها وعنفونها . وكان مستر دمبى مصمم على أن يبرهن لها على علوه وتفوقه عليها .

وفى ذات ليلة ، ذهب اليها فى غرفته الخاصة ، بعد أن عادت الى المنزل متأخرة .

- " مسز دمبى " ، قال وهو يدخل " يجب أن اقول لك بضع كلمات " .
- " غداً " أجابت زوجته .
- " أنت تخطئين فهم مركزك " قال دمبى ، وتابع " أننى معتاد على تخير أوقاتى بنفسى ، لا أن يختارها لى الآخرون . أن سلوكك لا يعجبنى . لقد طلبت اليك أن تعديله سابقاً . والآن أنا اصر على هذا الطلب " .

فنظرت اليه فى ثبات ، واغلقت شفتيها المرتعشتين .

- " أنت مكلفة جدى ، يا مدام " قال مستر دمبى " أنت شرعة طماعه ، تضعيين قدراً كبيراً من المال فى الاندماج فى نوع من المجتمعات غير ذى جدوى بالنسبة الى . ثم يجب أن تفهمى بوضوح ، يا مدان اننى يجب ان احترم واطاع . أننى أطالب بهذا كحق من حقوقى ، واعتبره شيئاً يحب الوفاء به ، لقاء المركز الضخم الذى سُنقته أليك بزواجى منك " .

ولم تفه ادث بأية كلمة . وظلت عيناها مثبتتين عليه .

- لقد علمت من أمك يا مسز دمبى ، أن هواء بريتون أفضل لصحتها . ولقد تفضل مستر كاركر " .

فتغير لون وجهها فجأة . واحمرت وجنتاها غضباً . ولاحظ
مستر دمبى هذا التغيير ، غير أنه استمر فى كلامه .

" لقد تفضل مستر كاركر بالنزول الى هناك وتأجير منزل
لفترة ما . وعندما تعودين الى لندن ، سوف أستخدم مسز
بيكين كمديرة للمنزل . أن منزلاً كهذا يحتاج الى عقل ذكى
مفكر " .

وعندئذ جلست مسز دمبى ، وهى لا تزال تبخلق فيه بشدة ،
وتدير سوراً حول ذراعيها .

- " لقد لاحظت منذ لحظة ، أن ذكرى لمستر كاركر قد
قوبل منك بطريقة غريبة وعندما ذكرت لك سابقاً أمام هذا
الوكيل الوثوق به ، أعترضى على الأسلوب الذى استقبلت
به ضيوفى ، كنت تعارضين فى أن يشهد ذلك الموقف
يحسن الأ تفكرى ثانية فى مثل هذا الاعتراض يا مدام ،
وتعودى نفسك على وجوده فى مثل تلك المناسبات ، فيما اذا
لم يتغير سلوكك كما أريد " .

وبوجه ثابت لم يتحول ، أجابت مسز دمبى فى صوت خفيض
:

- أنتظر ! وبحق السماء ! يجب أن تتكلم معاك . هل كنت
قد طلبت أليك الزواج بى ؟

- " أنه غير ضرورى بالمرّة يا مدام ، أن نبدأ مثل هذا
النقاش .

- واستمرت الزوجة قائلة " هل ظننت أننى احببتك ؟ هل حاولت مرة أن تكسب قلبى ؟ "

- " ربما لا " . أجاب ببرود.

- " لقد كنت تعرف من أنا " . لقد كنت تعرف تاريخى العام . هل تظن أن تستطيع أن تجبرنى على الطاعة . وابتسم مستر دمبى فى استهتار ، كما لو كان قد سئل هل يستطيع دفع عشرة آلاف جنيه .

- " ولكننى سوف أرجوك رجاء ؟ . أننى لا أشعر نحوك بعاطفة ما ، كما تعلم . ولعلك لن تهتم بأن أحاول ذلك . وأنا اعرف أيضاً أنك لا تحس نحوى بأية عاطفة . غير أننا مرتبطان معا ، وفى العقدة التى تربطنا ، ينطوى آخرون أيضاً . دعنا اذن نتصرف أحدهما تجاه الآخر بأسلوب افضل من هذا . وبمرور الوقت ، قد تنشأ بيننا صداقة ما " .

- " يا مدام " قال لها دمبى فى لهجة بالغة التعجرف والكبرياء " لا أستطيع أن أقبل أى عرض غريب كهذا " .

- " اذهب اذن ، يا سيدى ! " قالت له فى كبرياء ، وتشير بيدها ناحية الباب . " لقد تحطمت الثقة بيننا تماماً . اننا ، من الآن فصاعداً ، أبعد ما نكون أحدهما عن الآخر " .

الفصل الخامس والعشرون

(انفصال)

لاحظت فلورنس في حزن الكراهية التي نشأت بين أبيها وبين ادث ، وعرفت أن المرارة تزيد بينهما يوماً بعد يوم .

رأت والداها بارداً صلباً مع ادث ، ومعها . أليس من المحتمل أن أمها كنات أيضاً تعيسة لنفس هذه المعاملة ، وأنها ماتت حزناً وكمداً ؟ غير أنها كانت لا تلبث أن تفكر كيف أن ادث تعامل والداها بازدراء ، فتحمس سريعاً بأنه من الخط البالغ أن تحب شخصاً يقف ضد والداها . ثم تأتي بعد ذلك كلمات رقيقة من ادث ، فتتهز هذه الأفكار هزاً عنيفاً ، وتعلها تبدو للفتاة كنكران لجميلها . وهكذا اخذت تقاسى فلورنس من حبها لكليهما ، أكثر مما كانت تقاسى وهي تعيش وحيدة في المنزل الحزين ، قبل أن تهبط أمها الجديدة الحلوة عليه .

غير أن شيئاً واحداً كان يريح قلب فلورنس ، ذلك أنه لم يكن لديها ظل من الشك في ان ادث تد وسعت ، بحبها لها وانعطافها نحوها ، الشقة التي تفصلها عن والداها .

ولما رأت (سوزان نيبر) نعاسة سيدتها الصغيرة ، عولت على الذهاب لمستتر دمبي والتحدث إليه .

وعجب مستر دمبي ، الذي كان جالسا يتفرس في نيران المدفأة ، لدخول زائرتة تلك .
- ماذا تريدين ؟

- لقد ظللت اثنتى عشر عاماً أرعى مس فلوى ، التى لم تكن قد تعلمت الكلام بعد ، حين حضرت الى هنا فى البدء . وأن الخدمة الآمينة المخلصة تعطينى الحق فى الكلام ، كما أعتقد ، يا سيدى ، ولا بد لى من أن أتكلم " .

- " ماذا تعنين ، يا امرأة ! " قال مستر دمبى ، وهو يتطلع اليها فى غضب " كيف تجرؤين ؟ " .

- " مس فلوى " قالت سوزان نيير " هى اخلص ، واجمل ، واكثر البنات صبراً . أنه لو أتيح لأى سيد فى انجلترا أن يعرف قدرها جيداً ، لفضل أن يفقد كل ثروته وعظمته ، على أن يجلب الحزن الى قلبها الرقيق " .

- " يا امرأة " صاح مستر دمبى " اتركى الغرفة " .

- " سوف أتم كلامى ، ولو تركت المنزل برمته ، هذا المنزل الذى قضيت به هذه السنين الطوال ، ورأيت فيه أشياء كثيرة . لقد رأيت مس فلوى تحاول وتحاول وهى لا تزال بعد طفلة . ولقد رأيتها تنمو ، دون أى عون وتشجيع ، وتتحول - شكراً لله - الى سيدة ناضجة . ولقد رأيتها دائماً أبدأ تهمل ، وتعامل بقسوة كل ذلك بعمق . اننى أجهر بأن هذا عار فظيع " .

- " ما هذا ! " قالت مسز بيبكسن ، التى أصبحت الآن مديرة منزل مستر دمبى ، وهى تدلف الى الحجرة .

- " ما هذا ! " قال مستر فى غضب " ما هذا يا مدام ؟
لعمري أنه يحق لك أن تسألى هذا السؤال . هل تعرفين هذا
يا امرأة ؟ " .

- " كيف تجرؤين على الدخول الى هنا ؟ أخرجى حالا " .
صاحت مسز بيبكين فى صوت خشن قبيح .

- اذا وجدت أناسا عصاة فى خدمتى يا مسز بيبكسن " ،
قال مستر دمبى " فأنت تعرفين كيف تتصرفين معهم . خذى
هذه المرأة بعيداً " .

- " يا سيدى ، أننى اعرف ما يجب أن أفعله " ، اجابت
مسز بيبكين " يا سوزان نيبر ، لديك مهلة مقدراها شهر
واحد من الآن ، تغادرين بعدها هذا المنزل " .

- " أننى أنوى أن أغادر هذه اللحظة . وأن عزائى أننى
قلت اليوم شيئاً من الحق الذى كان يجب أن يقال منذ زمن
طويل " .

- وبهذه الكلمات ، غادرت مس نيبر الحجرة .

وانتشرت الأنباء حالا فى المنزل ان سوزان ستذهب . ولما
صعدت فلورنس الى حجرة سوزان ، وجدت أن سوزان قد
أغلقت آخر حقيبة لها وجعلت عليها مرتدية قبعاتها .

- "سوزان ! . اسوف تتركينى ! يا فتاتى العزيزة يا صديقتى القديمة ! ماذا أفعل بدونك ؟ هل تتحملين فراقى هكذا ؟ .

- " كلا ، كلا ، يا حبيبتي الغالية مس فلوى ، أننى حقاً لا استطيع " قالت سوزان وهى تجهش بالبكاء " غير انه لا حيلة لى فى الأمر . لقد أديت واجبى كاملاً " .

- " والى أين تذهبين يا سوزان " قالت سيدتها باكية .

- " لدى اخ فى الريف ، يا سيدتى " قالت نيبير الكسيرة القلب . " سوف اذهب بالعربة الى هناك وابقى معه " .

واحتضنت سوزان سيدتها الصغيرة مودعة ، وهرعت فلورنس بدورها الى عناقها فى دموع .

- " أستمحك عذرى يا سيدتى " قال تولينسون خاجر الباب مخاطباً فلورنس " أن مستر توتس يرسل تحياته وينتظر فى حجرة الاستقبال " .

واسرعت فلورنس الى قاعة الاستقبال .

- يا عزيزى مستر توتس ، أننى متأكدة أننى استطيع أن اطلب منك خدمة . أيمكن أن اطلب اليك أن تهتم بسوزان حتى تتركب العربة ؟ .

وفى الحال طلب مستر توتس من سوزان أن تتناول معه
العشاء قبل القيام برحلتها . وبعد عشاء طيب ، وتحيات كثيرة
، أدخل مستر توتس سوزان فى عربة الليل ووقف الى جوار
النافذة متردداً ، حتى أوشك السائق على القيام ، ثم قال فجأة :

- " اسمعى ، يا سوزان ! مس دمبى كما تعرفين"

- " اجل ، يا سيدى " .

- " هل تظنين أنها تستطيع ...ليس فى الحال ...ولكن
بمرور الوقت ...بمرور وقت طويلهل تظنين انها
تستطيع أنان تحبنى ؟ قال مستر توتس المسكين .

- " يا الله ، كلا . يجب أن اقول ان ذلك لن يكون ابداً ...أبدأ " .

- " أشكرك " ، قال مستر توتس " هذا لا يهم ، أشكرك " .

الفصل السادس والعشرون

(مستر كاركر ، الوكيل الموثوق به)

وخرجت أدث بمفردها ذلك اليوم ، وعادت مبكرة الى المنزل . وبينما هى تنزل من عربتها ، خرج شخص فى هدوء من القاعة وقدم لها ذراعه .

- " مدام ! هل أستطيع التحدث إليك لدقيقة واحدة ؟ " . قال كاركر

- هل هو أمر عاجل ؟

- عاجل جداً

- قبل أن استمع إليك ، أرجو أن تستمع أنت الى . كنت قد تلقيت أمرا من الرجل الذى الآن للتو بتسليمى رسالة ما ، فلا تحاول تسليمها ، لاننى لن استلمها .

- أنه من سوء حظى أن أكون هنا لمثل هذا الغرض .

أسمحى لى أن اقول أننى قد أتيت الى هنا لغرضين . وهذا أحدهما .

- ذاك الغرض الأول ... قد أنتهى امره .

- لقد طلب الى مستر دمبى . أن اكون رسوله إليك لأنه

يعرف أنك لا تحبينى ولأنه يعتبره اذلالا لزوجته أن تتلقى

الأوامر عن طريقى . أن مستر دمبى لم يعرف فى حياته

من قبل كبرياء غاضبة وكراهية شديدة تقفان فى مواجهته .

وكانت ادث على وشك أن تقول " ولكنه سوف يعرفهما الآن " غرأنها أن شفتيها لم تتحركا .

- " ثم لا يجب أن انسى الغرض الثانى من هذه المقابلة ،
يجب أن أرجوك بكل أخلاص أن تتحفظى فى اظهار حبك
لمس دمبى " .
- أتحفظ ؟ ...ماذا تعنى ؟

قال كاركر بصوت منخفض .

- أن تعليماته تقضى أن اخبرك أن سلوكك حىال مس دمبى
ليس مقبولا لديه . فاذا استمررت فى اظهار هذا الحب لها ،
فانك لن تود لها بذلك نفعا .
- هل اعتبر ان هذا تهديد ؟
- هذا تهديد . ولكنه ليس موجهاً ضدك .

وقفت ادث تبتسم فى وجه باحتقار ومرارة . ثم تهاوت كما لو
كانت الأرض قد هبطت من تحتها ، وكانت على وشك الوقوع
لولا أنه اخذها فى ذراعيه . ودفعته ادث بعيداً ، ووقفت فى
مواجهته مرة أخرى ، ويدها منبسطة ممدودة .

- أرجوك أن تتركنى . لا تقل شيئاً اخر الليلة .

وتناول يدها فى احدى يديه ، وقبلها وانسحب .

الفصل السابع والعشرون

(هروب أدث)

لم تكسر الأيام حدة الحواجر التى قامت بين مستر دمبى وزوجته .
وفلورنس ، التى بلغت السابعة عشرة ، كانت كثيراً ما تبق وحيدة حينئذ . ولما لاحظت أن ادث تتجنبها ، ذهب الى غرفتها ذات ليلة .

- " ماما " ، هل اغضبتك ؟
- كلا .
- لقد تغير سلوكك معى يا ماما العزيزة ، أننى احس بأقل تغير ، لأنى احبك من كل قلبى .
- " يا حبيبتى فلورنس " أجابت ادث ، وهى تنظر فى عيني الفتاة اللتين كانت تنظران إليها فى وله وحب " لا أستطيع أن اذكر لك سبب هذا التغير ، ليس لى أن اقدم السبب ، وليس لك أن تسمعيه . ولكن هذا ما يجب أن يكون "
- " هل سوف نصبح غريبتين ، احدانا عن الأخرى ، يا ماما ؟ " سألت فلورنس ، وهى تتطلع الى ادث فى خوف .
- لن نكون غريبتين تماماً ، ولسوف نكون هكذا فى الظاهر فقط ، يا فلورنس . لأننى لا ازال كما كنت من نحوك فى أعماق قلبى ، وساكون كذلك دائماً يا عزيزتى فلورنس ، انه يحسن - بل أنه من الضرورى - ألا ترى أحدانا الأخرى كثيراً " .

- " على الدوام " سألت فلورنس .
- " لا اقول ذلك " ، أجابت ادث " لست اعرف .
- " ماما " قالت فلورنس فى لهفة ورقة " لقد اعتراك تغير ما " .
- " كلا . كلا يا حبيبتي . ثقي أننى لن اتغير فى داخلى من نحوك ، على الرغم من أن الأشياء تبدو مختلفة بيننا . لا تسألينى سؤالاً آخر . اذهبي ، يا فلورنس . أن حبي وندمى يرافقانك دائماً ! .
- ومنذ ذلك الحين ، لم تعد فلورنس وادث كما كانتا من قبل . كانتا لا تتقابلان لمدة أيام بأكملها ، الا على المائدة ، وبحضور مستر دمبى .
- وفى اليوم السابق لعيد الزواج والدها الثانى بادث ، أخذت فلورنس مقعدها الى مائدة العشاء . ولم يكن هناك حديث كثير على المائدة وسمعت فلورنس أباهما يتحدث الى مستر كاركر احياناً على أنهاء العشاء . ولما وضعت الحلوى على المائدة ، قال مستر دمبى .
- أظنك تعرفين يا مسز دمبى ، أننى أخطرت مديرة المنزل أن جماعة سوف تحضر هناك باكر للعشاء "
- " أنا لا أنتاول العشاء فى المنزل " أجابت مسز دمبى .
- "لن تكون جماعة كبيرة العدد " أستأنف مستر دمبى غير ملف بالا لردّها " ستكون حوالى اثنتى عشر أو أربعة عشر شخصاً " .

- أنا لا أتعشى فى المنزل ..كررت مسز دمبى

- لا توجد مظاهر يجب المحافظة عليها أمام
الناس فى مثل هذه المواقف والمناسبات ..واذا لم يكن لديك
أحترام لنفسك ; يا مسز دمبى - "

- " لا يوجد عندى شئ من ذلك " .

- " مدام " صاح مستر دمبى ، وهو يضرب
بيده على المائدة " اسمعنى ، من فضلك ، أننى اقول أذا لم
يكن لديك احترام لنفسك ... "

- وانا اقول أنه لا يوجد عندى ذلك . (أجابت
ادث) .

- " كاركر ، اخبر مسز دمبى ، أنه لم يكن
عندها احترام لنفسها ، بأن لدى بعض الاحترام لنفسى ،
ولذلك فأنا اصر على الترتيبات التى أعدتها لباكر . "
- " اخبر سيدك ذا العظمة والجلال ...أننى
سوف أتكلم معه فى هذا الشأن بمفردى " .

- " اننى ارفض أن اقدم لك هذه المنحة .

- " ان ابنتك موجودة معانا ، يا سيدى

- أن ابنتى سوف تظل موجودة ، ان من واجبها
ازائى أن تعرف التصرفات التى تغضبنى لتجنبها . وأنت
اقوى مثل أمامها على هذه التصرفات .

- لن أحاول ايفافك ... (قالت الزوجة ، وهى
تجلس ساكنة تماماً .)

- " أننى لم اني حين بدأت كلامى " قال مستر

دمبى ، " أن ابنتى حاضرة ، يا مسز دمبى " .

- " وهكذا لا يكفيك " قالت ادث ، وهى تشير

بيد مرتعشة الى فلورنس " أن تنظر الى هنا ، وتفكر فيما

ارتكبته ، وفي الالم الذى سببته لى باجبارى على عمل ما تريد . أنت الآن تضيف الى ذلك قسوة بالغة اخرى ، بأن تريها آيه هوة تريدت أنا فيها . أنت تعلم أننى مستعدة لأجل خاطرها أن افعل ما تريد أذا استطعت – ولكننى لا استطيع أن اخضع نفسى تماماً لأرادتك وأصير عبدة ذليلة لك" .

وتحول دمبى الى فلورنس ، وأمرها بان تغادر الحجرة .
وأطاعت فلورنس الأمر ، وهى تبكى .

- لن افعل شيئاً مما تطلب . (مسز دمبى)
- "كاركر " قال مستر دمبى مكشراً ، " ان مسز دمبى تضعنى فى موقف لا يتلاءم مع شخصيتى ، وأننى يجب أن أوقف الآن هذه الأمور عند حدها . "
- " اخبره " قالت ادث موجهة حديثها الى كاركر ، " أننى اريد الانفصال عنه ، واخبره أننى مستعدة لأن يتم هذا الانفصال وفقاً للشروط التى يميلها هو ، اذ أن ثروته لا قيمة لها عندى ، غير أنه لا يمكن أتمام هذا الأمر بسرعة عاجلة " .
- " يا لسماء " يا مسز دمبى ، صاح زوجها ، فى دهشة بالغة . " هل تعرفين من أنا ، يا مدام ؟ ارتدين أن يقول الناس أن مستر دمبى – مستر دمبى ، قد انفصل عن زوجته !! أنت غبية حمقاء " وانفجر دمبى ضاحكا .
- ومزقت مسز دمبى الجواهر التى كانت لامعة متألئة على جيدها ، وذراعها وألقت بها على الارص . وبدون كلمة واحدة ، تحركت نحو الباب ، وهى تتطلع الى مستر دمبى فى صرامة ، قم غادرت الحجرة .

وكانت فلورنس ، قبل أن تغادر الغرفة ؛ قد سمعت ما يكفي لأن تعرف أن ادث لا تزال تحبها . وأنها قد اخفت عنها تضحياتها لئلا تقلقها ، كانت تريد أن تشكر ادث وتعبر لها عن عرفانها بجميلها – واخذت فلورنس تتجول خلال المنزل على أمل ان تقابل ادث قبل الذهاب الى الفراش .

وكانت تسير ممرآ عندما رأت مستر كاركر هابطاً على السلم بمفرده ، وفتح مستر كاركر الباب نفسه ، وتسلك الى الخارج بخف ، ثم أغلق الباب وراءه دون أحاث صوت .

وجرى الدم بارداً في عروق فلورنس . وما أن تماكنت نفسها ، حتى هرعت الى حجرتها ، واغلقت بابها ، ولكن حتى بعد ذلك ، كانت لا تزال تحس بالرعب والخوف ، كما لو كان هناك خطر ما يكمن الى جوارها .

وفي الصباح بحثت عن ادث مرة أخرى في جميع الغرف ، ولكنها لم تر اثرا لها . ومبكراً في ذلك المساء ، قابلت فلورنس أدث وهي تنزل الدرج بمفردها .

وكم كان رعبها هائلا حين صاحبت أدث في وجهها قائلة " لا تقتربي مني . ابعدي عن طريقي – دعيني أمر ! لا تلمسيني !

ووقفت فلورنس على الدرج مغشياً عليها . ولم تعرف أكثر حتى الفت نفسها راقدة على فراشها . وصممت ألا تنام قبل أن تعود أدث ، لتطمئن على أنها في سلام وأمان بالمنزل .

ومر المساء ، وهبط الليل ، ثم أتى منتصف الليل ، ولم تعد أدت . ولما اخبروا مستر دمبي أن زوجته لم تعد الى المنزل ، ارسل خادماً الى الأسطبلات لأستدعاء سائق العربية .

وعاد الخادم مع الحوذى ، الذى قال أنه قد ساق العربية بسيده فى الساعة العاشرة الى منزلها القديم حيث قابلها مستر كاركر .

ورأت فلورنس والدها ، وقد ابيض لون وجهه جداً .

وأمسك شمعداناً ، وذهب يعد ساعداً الى حجرة مسز دمبي . وفتح الباب وهرع الى الداخل . ولم يلبث أن القى على الأرض بكل رداء كان لزوجته منذ زواجها به .

وبينما هو يعيد تلك الملابس فى أكوام الى الأدراج، رأى بعض الأوراق على المنضدة : الحجة أليها عند زواجهما ، ومعها خطاب . وقرأ فى الخطاب أنها قد قرأت مع كاركر ، الرجل الذى اختاره هو لأذلالها وجرح كبريائها .

وكانت الشفقة التى تملك قلبها على والدها ، هى الشعور الأول الواضح الذى نتميز فى نفس فلورنس على حزنها العميق . وأسرعت فلورنس نحو ابيها ، وذراعاها ممدوتان ، وهى تصيح " أوه يا عزيزى بابا !! يا عزيزى بابا " .

ولكنه فى سورة غضبه الهائل ، رفع ذراعه القاسية ، وضربها بشدة ، فسقطت على الأرض الرخامية . ولحظة أن ضربها ، انطلق فى سب ادث ، واصفاً اياها بنعوت قبيحة ، ثم أمرها

بان تتبعها ، حيث أنهما كانتا دائماً شغوفتين أحدهما بالأخرى

.

ولم تنبس الفتاة بكلمة واحدة . ولكنها نظرت اليه ، ثم لم تلبث
أن صعد أنه حزن عظيم من أعماق قلبها . لقد رأت أنه لا
يوجد لها أب على الأرض ، وجرت كاليتيمة خارجة من
منزله .

الفصل الثامن والعشرون

(هروب فلورنس واكتشاف عجيب)

سرح فكر فلورنس فى المرة الأخيرة الوحيدة التى تاهت فيها فى مدينة لندن ، مع أنها لم تكن حينئذ تائعة ضائعة كالآن ، فسارت فى ذلك الطريق حتى أتت الى منزل العم والتر . وما ان وصلت الى هناك سقطت مغشياً عليها .

ورفعها الكابتن كطفلة صغيرة فى يديه ، وقد شحب وجهه جداً ووضعها على نفس الأريكة القديمة التى نامت عليها قبل ذلك بزمن طويل .

- " كابتن كتل ، أهو انت " صاحت فلورنس عندما أستعادت وعيها .
- أجل . أجل . يا سيدتى الصغيرة .
- هل العم والتر هنا ؟
- " هنا ، يا جميلتى ؟ " أجاب الكابتن " انه ليس هنا منذ زمن بعيد .
- أوه ، يا كابتن كتل . انقذنى ! لا يوجد لدى من أستطيع الذهاب اليه فى هذا العالم ، لا تبعدنى عن هنا !
- " أبعدك ، يا سيدتى الصغيرة " صاح الكابتن " أنت يا فرح قلبى " .

وبهذه الكلمات ، أغلق الكابتن الباب ، اخت فلورس يده وقبلتها .

- " لابد لك من تناول الإفطار الآن " قال الكابتن ، وبعد ذلك سوف تصعدين الى حجرة سول جلز العجوز ، حيث تنامين كالملاك الطاهر .

وحتى لا تتعب ، حملها الكابتن بين ذراعيها ، على الرغم من أرائتها الى الدور العلوى ، ثم قال لها

- " يا سيدتى الصغيرة ! أنت هنا فى أمان تام . ان ما تحتاجين اليه هو النوم . ولسوف أتركك الآن تنامين . وحين تحتاجين الى شئ ..نادينى "

وما أن نزل الكابتن الى أسفل ، حتى فتح باب الدكان ليتأكد من أن أجداً ليس بالخارج ، وبينما هو يفعل ذلك ، سمع صوتا الى جانبه يقول " كيف حالك ، يا كابتن جلز ؟ " .

ورأى انه مستر توتس .

- " كيف حالك يا بنى ؟ قال الكابتن .
- " حسناً أننى فى خير حال ، أشكرك يا كابتن جلز ، قال مستر توتس " غير أننى الآن لست أرغب تماماً . ولا أعتقد أننى سوف اكون كذلك يوماً ما .

وكان مستر توتس يشير بهذا الكلام من بعيد الى حبه اليأس فلورنس .

- " يا كابتن جلز " قال مستر توتس ، هل تسمح لى بكلمة معك ! انه شئ هام " .

- أن ترى ، أننى مشغول هذا الصباح ، فأذا استطعت أن تسرع فى كلامك ، أكون شاكرآ لك " .

- " حدث وأنا سائر فى هذا الصباح مبكراً فى هذا الصباح ، وقد رجدت الباب مغلقاً " .

- " ماذا ! أكنت تنتظر هناك ، يا أخ ؟ " سأل الكابتن .

- لم أقف لحظة واحدة . لقد كنت أظن أنك فى الخارج . ولكن الشخص الذى قابلته فجأة ، ثم سرت معه بعيداً ، طلب منى أن اخبرك ان تستعد لشيء هام .

- " تقول أنك قد قابلت شخصاً ! . (سأل الكابتن فى تعجب) .

- " أجل ، ولكننى لا اعرفه بالتأكيد ، يا كابتن جلىز . غير اننى عند وصولى الى الباب ، وجدته هينتنظر هناك وقد رجائى أن اطلب منك الاستعداد والخروج الى ركن الشارع لمواجهة أمر هام جداً " .

وشكر الكابتن محدثه ، واستاذن منه فى الذهاب على أن يعود بعد خمس دقائق، ثم خرج لمقابلة الشخص الذى بعث بهذه الرسالة الغامضة مع مستر توتس .

ولما عاد كان شاحب الوجه جداً ، وبدا كأنى يبكى ، ولم يقو على الكلام حتى شرب كوبا من الروم .

- " يا كابتن جلز " قال توتس برقة " أرجو الا يكون هناك ما يسيء " .

- اشكرك يا بنى ، كلا على الإطلاق ، قال الكابتن " ان الأمر على العكس من هذا تماماً " .

ولما غادر مستر توتس المكان ، اغلق الكابتن الباب خلفه ، وصعد ليرى فلورنس . وقرع بخفة على باب فلورنس ، ولكنه لم يتلق جوابا

واستيقظت فلورنس بعد وقت طويل ، حين كانت الشمس تهبط فى الأفق المغربى ، وتفرست حولها نظرة دهشة ، ثم لم تلبث أن تذكرت كل شئ .

- " يا جميلتى الصغيرة " قال الكابتن وهو يقرع الباب ، كيف حالك ؟ .

- " يا صديقتى العزيز " صاحت فلورنس ، وهى تهرع اليه ، " أهو أنت ؟ " .

وشعر الكابتن بالفخر ، وابتهج بنظرة السرورى التى لاحت على وجهها عند رؤيته .

- سوف انزل لاعد العشاء .

وبعد العشاء ، وضعت فلورنس غليونيه فى يده ورجته أن يدخن وعندما أعدت له كأسا من الروم ، ووضعتها أمامه على المنضدة ، شعر بالتكريم والاعزاز . ثم اشعلت له الغليون

وتطلعت اليه بابتسامة امتزج فيها الحب بالر عفان بالجميل
حتى دمعت عينا الكابتن .

وفى اليوم التالى ، كانت فلورنس اهدأ مما كانت عليه فى اليوم
السابق ولما كانت أضواء نيران المدفأة تسطع على حوائط
وسقف الحجرة الصغيرة قطع الكابتن السكون الطويل بقوله :

- الم تسافرى بالبحر أبداً ، يا عزيزتى ؟
- كلا
- انه لقوة هائلة جبارة .
- هل واجهت يوماً عاصفة مريعة ؟

- طبعاً يا عزيزتى ، لقد تقابلت مع عواصف وأنواء
كثيرة ..وتابع الكابتن : ولكننى لا اقصد نفسى بهذا الكلام ،
بل أعنى ابنى العزيز والتر ، الذى غرق ، يا حبيبتى .

- لقد تغير وجهك . ما هذا ؟؟ يا عزيزى كابتن كتل ،
أننى ارتبع لمراأك

- " هناك لآلى ، وأخطار فى أعماق البحر ، يا جميلتى "
، وتابع الكابتن " وكم طوت اللجج من سفن عظيمة وقلوب
شجاعة مقدمة ! بيد أن هناك أيضاً منافذ للنجاة فى هذه
الأعماق ، وأحياناً تنقذ رحمة السماء رجلاً ما ، فيعود الى
بيته بعد أن كان يظن ميتاً . "

وتتبعت فلورنس ، وهى ترتعش ، نظرتة التى كانت تتجه
خلفها الى الدكان حيث كان مصباح يضى .

- " اثبتى ، يا عزيزتى فلورنس ! تشجعى ! لا تنتظرى حواليك الآن " ...وتابع الكابتن " أنظرى هناك – على الحائط " .

وكان هناك خيال على رجل على الحائط بالقرب منها .
وقفزت ناهضة وتطلعت حولها ، ثم صاحت صيحة هائلة ،
وهى ترى (والتر) جاي خلفها .

لم تكن تفكر فيه الأ كآخ ، وادفعت فى ذراعيه . كان يبدو أملها وعزاءها فى هذا العالم .

ولم يشرق وجه الكابتن فى حياته أبداً من قبل ، كما أرق
يؤمئذ ، وهو يجلس الى مائدة الشاى ، مثقلا البصر من
فلورنس الى والتر ، ومن والتر الى فلورنس .

وجلسوا هكذا حتى تقدم الوقت . ثم أستاذن والتر فى ترك
المكان للنوم .

- أننى السبب فى رحيلك بعيدى (فلورنس الى والتر) .

- " اذا كان هناك ما يجعلنى سعيداً جداً برؤيتك والتحدث
اليك الآن ، فهو شعورى بأن القدر قد يتيح لى فرصة لتقديم
خدمة لك "

وابتسمت فلورنس فى غبطة .

" لقد تغيرت " قال والتر .

- أنا تغيرت ؟

فقال والتر فى صوت منخفض جداً " لقد تركتك طفلة صغيرة ،
وها انا الآن أجذكأوه ، شيئاً مختلفاً جداً ... " .

وتناول والتر يدها فى كلتى يديه ، ورفعها الى شفتيه وقبلها .
لقد عرف الآن أنها أصبحت فتاة شريفة بلا بيت ، ولكنها بدت
ابعد كثيراً عما كانت فى أحلام صباه .

الفصل التاسع والعشرون

(صديق صادق)

وفى ذلك الصباح ، دخل مستر توتس مندفعاً الى حجرة الجلوس .

" يا كابتن جلز " قال توتس ، لقد كدت أن افقد عقلى . أرجو أن أتحدث اليك على انفراد

- " أنظر هنا ، يا أخ ، قال الكابتن " ، " هذا الشخص الموجود هنا هو والتر أبين اخ سول جلز العجوز ، الذى كان يُظن أنه غرق فى البحر " .

وبحلق توتس فى والتر قائلاً " يا ألهى ! كيف حالك ؟ أنا ... أنا ... أنا أخشى أن يكون البلبل قد غمرك بشدة يا كابتن جلز ، هل تسمح لى بكلمة فى الدكان ؟ .

وجذب الكابتن من سترته ، وخرجا معاً ، وهو يهمس فى أذنه :

" ذلك الشاب اذن ، يا كابتن جلز ، هو الشخص الذى كنت تعنيه ، حين قلت لى أنه ومس دمبى قد خلق أحدهما للآخر ؟ "

- نعم يا بنى ، كنت أظن ذلك حينئذ " .
- " أنه غريم كرية " ، قال مستر توتس . وصمت لبرهة ، ثم اردف قائلاً " أنه ليس ، على الأقل غريم كرية . كلا :

إذا كانت عاطفتى فير أنانية حقاً يا كابتن جلز ، فدعنى
أبرهن الآن على ذلك ! .

واندفع مستر توتس فجأة الى داخل حجرة الجلوس ، وقال وهو
يهز يد والتر مصافحاً .. " كيف حالك ؟ أرجو ألا يكون قد
أصابك برد . أنا ... أنا سوف أسر كثيراً لو أتحت لى فرصة
معرفتك . كل عام وأنت بهير أن شاء الله "

- " أشكرك من كل قلبى "
- " يا كابتن جلز " قال مستر توتس ، " أرجو أن
تسمحوا لى الآن بالكلام فى موضوع معين ... "
- " آى، آى، آى يا بنى " أجاب الكابتن " تكلم بحرية . تكلم
بحرية "

- " اذن يا كابتن جلز " قال توتس " ويا مُلازم والترز .
هل تعرفان أن مس دمبى قد تركت أباهما وذهبت الى حيث
لا يعلم أحد ؟ "

- " مستر توتس " قال والتر " يسرنى أن أستطيع تهدئة .
خاطرك . مس دمبى فى أمان وفى خير حال . وأنه ليريح
رجلاً كريماً مثلك ويُسعده أكثر أن يجد أنه يستطيع أن يؤدى
لها خدمة ما . يا كابتن كتل ، هل تسمح بأخذ مستر توتس
الى الدور العلوى ؟

وكم كانت دهشة توتس وفرحته عظيمنتين عندما رأى فلورنس حتى أنه لم يقو على الكلام ! وجرى إليها ، وأمسك بيدها ، وقبلها ، وذرف الدموع ، ثم ضحك ضحكة خشنة .

- " يا عزيزى مستر توتس ، أننى فرحة لرؤياك " قالت فلورنس .

- " أشكرك . أننى فى خير حال . أننى مدين لك بالكثير يا مسز دمبى . أرجو أن يكون جميع أفراد العائلة بخير " .

وقال مستر توتس ذلك دون أدنى فكرة عما كان يتحدث عنه .

- " لقد ذكر لى كابتن جلز والملازم والترز ، يا مس دمبى ، أننى أستطيع ان أقدم لك خدمة ما " قال توتس .

- " اذا كنت تريدان العثور عليها " قال مستر توتس ، " فسوف أحضرها لك ، يا مس دمبى . وداعاً ! تستطيعين أن تتقى بى بعد كابتن جلز نفسه " .

وفكرت فلورنس طويلا فى المخلوق الطيب ، بعد أن غادرها بمزيج من الألم والسرور . لقد أصبحت أخيراً على قدر كبير من الضعف والرقّة ، اذ اثرت المشاق التى مرت فيها على صحتها . ولكن لم يكن هناك مرض جسدى يؤثر فيها . كانت تعاني وكمدآ فى النفس ، وسبب ضيقها وجزنها كان هو والتر .

فعلى الرغم من أنه كان مغرمًا بها ، وتوافقًا لرؤيتها ،
وشغوفًا بخدمتها ، إلا أن فلورنس لاحظت أنه يتجنبها . كان لا
يأت إلا اذ أرسلت في طلبه . وأخيرًا عولت على التحدث اليه
كانت تعتقد أنها تعرف السبب في انزوائه واحتجابه .

- " والتر " قالت له ، أنت تذكر المرة الأخيرة التي
رأيتك فيها قبل ان ترحل من أنجلترا ؟
فوضع يده في صدره ، وأخرج كيساً صغيراً .

- " لقد كنت أضعها دائماً حول عنقي ! ولو كنت قد
غرقت في أعماق البحر ، لكانت قد استقرت معي هناك " .

- " هل سوف تلبسها دائماً ، يا والتر ، لأجل ، لأجل
خاطري ؟ " .

- " حتى أموت ! " .

- " أنني سعيدة بذلك يا والتر . لقد كنت أنا سبب تحطيم
أمانيك وآمالك . ولقد حاولت أنت أن تخفي ذلك عني .
أشكرك لذلك ، يا والتر ، ولكنك لن تستطيع ذلك . لقد قاسيت
كثيراً جداً حتى أنك لن تستطيع تجاهل السبب في كل ما
أصابك من حزن وألم . لن تستطيع أن تنسى أنك بسببي نُقلت
الى باربادوس . كل ما أريده يا والتر . ألا تقاوم نفسك
وتؤلمها من أجل ، بعد أن عرفت أنا الآن كل شيء ! .

وتطلع والتر اليها بوجه يكسوه العجب والدهشة .

- "أوه ، مس دمبى " قال لها " لن أنظر الى دورك فى حياتى أبداً الا كشيء مقدس . أنه لا يسعدنى قدر أن أراك وأسمعك كما كنت تفعلين ليلة أن افترقنا ، كما أنه لا بهجنى ويملأنى بالثقة والا عتزاز بالنفس قدر أن أراك تحبينى وتتقين بى كأخيك . غير أنه ليس لى عليك حق . لقد تركتك طفلة صغية وها أنا الآن أجد أمامى امرأة مكتملة "

واحمر وجه فلورنس .

- " غير أننى أتخذ لنفسى هذا الحق " ، أردف والتر ، لما تميزت به أنت من قلب واثق ، طيب ، طاهر . ولكن كيف أجرؤ على أن أدعوك أختى ، يا فلورنس ؟ لو كنت غنياً ، لقلت أن هناك اسماً واحداً فقط تستطعين أن تنادينى به ، ويعطينى الحق فى حبك وحمایتك ، وأننى غير جدير بهذا الأسم لولا حبى الصادق العميق مع احترامى لشخصك "

وكانت راسها منكسة ، والدموع تنحدر على خديها .

- " يا عزيزتى فلورنس ! يا أعز مخلوق لدى ! مرة أخرى وأخيرة دعينى أناديك باسمك الغالى ، وألمس هذه البلد الرقيقة كعلامة على نسيانك أخت لى – لما قلت الآن "

- " كلا يا والتر " قالت فلورنس " لا أستطيع أن أنسى ذلك . لن أنسه مطلقاً . هل انت ...هل انت فقير جداً ؟

- " لست سوى سائح متجول فى الأرض ، اكسب عيشى بالضرب فى عرض البحر . تلك مهنتى الآن " قال والتر .

- " وهل سوف ترحل قريباً مرة اخرى ، يا والتر " .
- " قريباً جداً " .
- " اذا أخذتني زوجة لك ،يا والتر " قالت فى رقة بالغة
" فلسوف أحبك جداً . لن أضح فى سبيلك بشئ – فليس
لدى ما أضحي به ، أو من أحزن لفراقه ، ولكن كل حبي
وحياتى سوف يُكرس لك " .

وضمها والتر الى صدره ، وأسند خدها الى خده ، وعندئذ
بكت طويلا على صدر حبيبها ، وقد أضحت غير وحيدة ، منذ
تلك اللحظة ، وغير مكروهة ، أو مهلة ، بعد .

الفصل الثلاثون (الهارب)

الزمن قبل منتصف الليل بساعة ، والمكان هو شقة فرنسية تتألف من ست حجرات .

وفى أصغر تلك الحجرات ، كانت تجلس امرأة جميلة - هى ادث . وكانت بمفردها ، ونفس تلك السيدة المتكبرة ، التى تنظر حلوها باحتقار وازدراء . كانت تجلس وتنتظر .

وما أن سمعت صوت مفتاح فى الباب الخارجى ، ووقع خطوات فى الصالة ، حتى وهبت واقفة ، وصاحت " من هناك ؟ " .

ودخل كاركر من الباب الخارجى ، وأغلقت خلفه . ثم تقدم نحوها ، وهو يغلق جميع الأبواب وراءه . وهندئذ تسلمت يدها الى سكين قريبة فى متناول على منضدة الطعام .

" لم أرك قط جميلة جذابة كالليلة " قال كاركر وهو يدينها منها . وتناولت المرأة السكين بسرعة خاطفة .

- " قف مكانك ! " قالت ادث " وألا قتلتك " .

وطفح وجهه بالغضب والدهشة ، ولكنه ضبط مشاعره ، وقال فى رقة :

- " هيا ، هيا ! نحن الآن وحيدين ، وبعيدان عن مرأى ومسمع كل شخص . هل تقصدين إثارة الخوف فى نفسى بهذه الألاعيب ؟ .

- " أتظن أننى أخشاك ، لو كنت أخشاك ، لما حضرت هنا فى سكون الليل البهيم ، لأقول لك فى وجهك ما سوف أقول " .

- " وماذا تريد أن تقول ؟ " .

- لن أقل شيئاً حتى تعود الى ذلك الكرسي . لا تقترب منى ! لو فعلت ذلك لقتلتك بهذه السكين !

وعض الرجل شفته غيظاً ، وكشر عن انياحه ، وضحك ضحكة خشنة ، ثم جلس فى كرسيه فى ضيق وقلق لم يستطيع اخفاهما .

- " كم مرة خدعتنى وأنا امرأة متزوجة ؟ قالت ادث وهى تحدجه بنظرات قاتمة قاسية " . كم مرة كشفت الغطاء عن جرح لتلك الفتاة الحلوة التعسة ؟ كم مرة أضفت جديداً للتعاسات التى تحملتها لمدة سنتين ، واغريتنى بالانتقام اليائس العنيف الاخرق ؟ .

- " ماذا ، يا أدث ؟ اجاب الرجل " لقد كان هذا السلوك مناسباً بالنسبة الى زوجك التعس " .

فأجابت وهى تنظر إليه بأزدراء وكبرياء :

- كان يكفينى لاحتقاره وكرهه أن تكون أنت مشيره وناصحه .

- أكان هذا هو السبب فى هروبك معى ؟

- نعم ، وهذا هو السبب فى وقوفنا الآن وجهاً لوجه ، للمرة الأخيرة . لقد لعبت دور الخائن الأثيم ، لقد خدعته وخدعت طفله البرئية وخدعت الجميع .

ولم يستطيع النظر اليها دون خوف أو وجل . لقد عرف أن كرهها لن يقف عند حد :

- " ألتفت الى تحذيرى " قالت ادث " لقد خُدت أنت أيضا كما يخدع جميع المخادعين الغشاشين . لقد رأيت زوجى الليلة فى عربة فى الشارع !

وفى تلك اللحظة ، رن صوت الجرس فى الصالة ، فاييض وجه كاركر خوفاً ورعباً . وفى لحظة خاطفة كانت ادث قد دلفت الى حجرة النوم وأغلقت الباب خلفها . وظل الجرس يدق ، ثم سمعت أصوات مختلفة تتحدث معاً : ومسز كاركر من بينها صوتاً يعرفه جيداً .

واقترح كاركر باب غرفة النوم ، غير أنها كانت مظلمة وخاوية . وما أن رأى درجاً صغيرى على مقربة منه حتى هبط عليه الشارع . وبينما هو يسير بعيد ، شرع يتمتم باللعنات

الساخطة على ادث . وهكذا وصل الى بوابة فناه فندق حيث
أستأجر عربة نقله الى باريس .

- " اسمع يا صديقي " قال السائق " أننى على عجل
شديد ، وارجو ان تسوق بأقصى سرعة ممكنة " .

ولم يكن يفكر فى هدف معين . تلك انتفضت فى خاطره ذكرى
الأيام السابقة على زواج سيده الثانى . وأخذ يفكر كيف كان
يغار من ابن سيده ، ومن ابنته ، وكيف أحكم الحلقة حول
فريسته بمهارة حتى أن أحداً غيره لا يستطيع ان يعبرها . ثم
اخذ يفكر كيف وقع فى الحفرة التى ظل يحفرها لغيره طويلا ،
فانتهى به الأمر الى التشرذ والقرار من وجه العدالة .

ومرة تلو المرة اخذ يصغى ويتسمع متلمساً صوت عجلات
خلفه . ومرة اثر مرة كان يبدو له صوت تلك العجلات واضحاً
قوياً وهى تنهب الأرض للحاق به . غير أن تلك كانت أوهاماً
مما تسيطر على قلب الشرير الأثم الذى يتوقع الجزاء
والقصاص فى كل لحظة . ولم تلبث أن خبت النجوم ، وأخذت
الشمس تصعد فى الأفق ، وهو لا يزال يتطلع الى الخلف ، ولا
يرى مطارداً فى أثره على مرمى البصر .

كانت رحلته كحلم لا واقع فيه غير عذابه وآلامه هو . واندفع
فى تلك الرحلة التعسة حتى وصل الى باريس . ثم عبر البحر
بعد ذلك وعاد الى انجلترا .

عندئذ فكر الرجل فى أن يذهب الى مكان يعرفه فى الريف
البعيد . واندفع ، تحقيقاً لهذا الغرض ، الى عربة قطار بأسرع

ما استطاع . وما أن وصل الى المحطة ، حتى ذهب فى الحال ، متخفياً ، الى الفندق . وكان قد جلس وقتاً طويلاً ، يشرب ويفكر على ضوء الشموس ، عندما قفز فجأة وأخذ يتسمع فى رعب وخوف .

وأحس بهزة فى الأرض وسمع صيحات بعيدة ، وشعر بضوء خافت يقترب ، سرعان ما تحول الى عيين حمراوتين تطلقان الشرر ، ثم شعر بحركة قوية لجماعة مزمجرة كبيرة العدد تزحف الى الأمام . ثم وهبت ريح قوية عاتية ، اعقبتها ضجة قطار يقترب من المحطة . ووصل القطار وقام ، وأخذ هو ينتظر قطاراً آخر ، ثم آخر .

وظل راقدي يتسمع فى فراشه ، ولما شعر باهتزاز الأرض ، نهض واتجه الى النافذة ليراقب . واستمرت تلك المراقبة طوال الليل .

وما أن طلع الفجر ، حتى سال الرجل الذى دخل عليه بالشموع :
- " فى أى وقت قلت أننى يجب أن اغادر هذا المكان ؟ " .

- " حوالى الساعة الرابعة والربع ، يا سيدى " ، أجاب الرجل : " ربما لن يسافر معك أحد من هنا يا سيدى . يوجد هنا سيدان ، ولكنهما ينتظران القطار الذاهب الى لندن " .

- " أظنك قلت أنى لا يوجد هنا أحد " قال كاركز ، وهو ينظر اليه فى شك .

- " لقد حضر السيدان ليلا ، يا سيدى" قال الرجل .

فارتدى كاركر ملابسه بسرعة ، ودفع حساب الفندق وخرج الى محطة السكة الحديدية .

وما أن دفع أجر السفر ، وأخذ يسير على الرصيف جيئة وذهاباً ، حتى رأى الرجل الذى كان هارباً منه ، ولم تلبث أن تقابلت عيونهما . وفى غمرة خوفه ودهشته ، زلت قدمه ، وسقط كاركر على القضبان فى أسفل .

وسمع صيحة – وأحس بالأرض تهتز – وعرف أن القطار قادم – وأطلق صرخة هائلة – ثم رأى العينين الحمروائين فوقه مباشرة – ولم يلبث أن أمسك فى عجلات القطار ، وقُلب المرة تلو المرة ، ثم دفع ، ميتاً على القضبان .

الفصل العاشر والثلاثون

(زفاف آخر)

أخذ محل صناعة الأدوات يضج بالحركة والحياة . وأخيراً حضر مستر توتس وسوزان .

- " أوه ، يا حبيبي الحلوة الجميلة مس فلوس ! " صاحت سوزان نيبير ، وهى تندفع الى حجرة فلورنس " كيف أتصور أن اجدك هنا بلا منزل خاص بك " .

- " سوزان ، يا عزيزتى الطيبة سوزان " . قالت فلورنس .

- " ليباركها الله . يا لى أنا التى كنت خادمتها عندما كانت طفلة صغيرة ! هل سوف تتزوجين حقيقة ؟ " .

- " من قال لك هذا ؟ " سالت فلورنس .

- " يا الله ! ذلك المخلوق البرئ ، توتس " أجابت سوزان .

ومر الوقت سريعاً جداً ، حتى حلت الليلة السابقة على اليوم المحدد للزفاف ، وكانوا جميعاً مجتمعين بالحجرة العلوية فى الدكان ، عند ما صاح الكابتن فجأة فى زئير عال " ها يا سول جلز ! " .

ثم اندفع الى حضن الرجل العجوز الذى قد دلف الى الحجرة .

- " سول جلز ، سول جلز ، أين كنت ، وماذا كنت ،
وماذا تفعل طيلة ذلك الوقت ، يا ولدى العجوز ؟ قال الكابتن
وهو يبتسم فى سعادة .

- " أنا متعب ، ومذهول حتى أننى لا أستطيع الليلة أن
اقول شيئاً كثيراً " أجاب سول جلز .

وذهبت فلورنس الى فراشها مبكراً فى تلك الليلة ، ولكن بعد
أن سمعت العم سول سول ووالتر يسأل كل منهما الآخر أسئلة
كثيرة عن رحلاتهما والأخطار التى قابلاها .

- " مستر توتس " قال توتس ، وهو يفترق عنه " سوف
نتقابل باكراً صباحاً . أليس كذلك ؟ " .

- " أيها الملازم والترز " أجاب توتس ، وهو يشد على
يده بحرارة " سأكون حاضراً بالتأكيد " .

- " أرجو أن تعرف أننى مقدر جداً لجميلك " قال والتر .
" فلقد جعلتنى فلورنس أعدّها بأن اخبرك أنها تعزك أعزاً
عميقاً ، وأنها لن تجد صديقاً تقدره أكثر منك . هل تريد أن
أحمل لها أية رسالة منك ؟

- " قل لها يا والترز " أجاب مستر توتس . أننى سعيد
جداً بأن اعرف أنها تزوجت الرجل الذى تحبه ويحبها " .

وفى الصباح التالى تزوج والتر بفلورنس .

ومرت أيام قلائل ، ثم خرجت ضخمة الى عرض البحر . وفي منتصف الليل جلس العروسان على ظهرها منفردين .

- " أننى اذ اسمع صوت الأمواج " قالت فلورنس "
وأجلس أراقبها تجتاح عقلى أفكار كثيرة . أنها تجعلنى أفكر
كثيراً فى ... "
- " فى بول ، يا حبيبتى ... أعرف هذا "

بيد ان الامواج كانت تجعلها تفكر فى بول وفى والتر أيضاً .
كانت الأصوات طى الأمواج تهمس لها دائماً بالحب ، الحب
الأبدى الذى لا حدود له .

الفصل الثانى والثلاثون

(الجزء)

وفى ذات عصر من عصارى الصيف ، بعد أنقضاء عام على تلك الحوادث ، كثر الهمس فى محيط المشتغلين بتبادل السلع حول وقوع هبوط ضخم . وفى اليوم التالى ، انتشرت الأنباء بأن شركة دمبى وولده قد توقفت عن أعمالها . وفى الليلة التالية ظهرت قائمة بأسماء المفلسين ، وعلى رأسها اسم مستر دمبى .

لقد حلت التغيرات مرة أخرى بهذا المنزل العظيم . انه لا يزال منزلاً عظيماً ، ولكنه مفلس خرب على الرغم من ذلك .

وبعد أيام قلائل ، بدأ أناس غرباء يفدون الى المنزل ، ويعقدون المواعيد مع بعضهم البعض فى غرفة الطعام . وأخيراً قبل أن بيعاً سوف يجرى .

والآن ذهب كل شئ . ولم يبق أحد من المحتلين الغرباء . وترك المنزل خراباً تجرى منه الجدران . ان بوللى ، مربية بول السابقة التى عادت لترعى مستر دمبى ، وحيدة الآن فى المنزل الخاوى . وبينما الليل مخيم ، وهى جالسة فى حجرة مديرة المنزل ، سمعت قرعاً على باب البهو . أنها مس توكس وعيناها مجرتان .

- " أوه ، يا بوللى " قالت مس توكس " لقد تسلمت الرسالة التى تركت لى . الأ يوجد هنا أحد سواك ؟ " .

- "آه ! لا احد اطلاقاً " قالت بوللى .
- " وهل رأيته ؛ " همست توكس .
- " ليبارك الله " أجابت بوللى " كلا . يقولون . لى أنه لا يغادر غرفته أبداً " .
- " هل هو مريض ؟ " سألت مس توكس .
- " كلا يا مدام " أنه كما عرف صحيح البدن ، غير أنه متعب العقل . لابد وأنه معقل العقل جداً ، يا له من مسكين "
- .

وتأثرت مس توكس حتى أنها لم تقو على الكلام . ثم عادت مبكرة فى اليوم التالى . وتعودت بعد ذلك على الحضور يومياً الى منزل مستر دمبى حاملة معها بعض أنواع الطعام الشهية لتحمل الى غرفته . وكانت تقضى معظم وقتها فى ذلك البيت الخرب ، غير راغبة الا فى الأخلاص لصاحبه الذى أخنى عليه الدهر ، ولا يعرف أحد من أمرها شيئاً سوى امرأة واحدة فقيرة بسيطة هى بوللى .

غير أن الميجور عرف ذلك أيضاً ، وكاد أن يموت من الضحك . وكان يقول لنفسه دائماً ، " لعنة الله على تلك المرأة ، لقد ولدت عبيطة بلهاء " .

وماذا عن دمبى المسكين ، كيف كان يقضى وقته وحيداً ؟ " دعه يتذكر ذلك فى تلك الحجرة فى السنوات القادمة ! " لقد تذكر ذلك فعلاً . ولكنه كان عبثاً ثقيلاً على عقله الآن ، أثقل من كل شئ آخر مما وقع له .

لقد كان يتذكرها ، كما كانت ليلة ان عاد هو وعروسه الى المنزل . وتذكر جميع أحوالها وتصرفتها خلال كل ما وقع في المنزل المهجور من أحداث . انها هي فقط ، التي كانت تتطلع أليها دائماً بابتسامتها المحبة الرقيقة . أنها لم تتغير أبداً ازاءه ، كما لم يتغير هو أبداً أزاءها في معاملته القاسية ؟ - ثم... ثم فقدها بعد ذلك .

وفي كبريائه - لأنه كان لا يزال متكبراً - ترك العالم ينسلخ عنه في سهولة ويسر ، لم يكن يفكر في رقيق ما في بؤسه وشقائه ، الا تلك التي طردها بعيداً . كان يعرف دائماً أنها كانت سوف تحبه الآن أكثر من أى وقت آخر ، وكان يجلس مفكراً هكذا ، في وحدته ، من ساعة الى اخرى .

غير أنه كان لا يزال شديد الكبرياء ، حتى أنه لو كان قد سمع صوتها في الغرفة المجاورة ، لما تقدم يدعوها اليه . وخرج من وحدته ذات مرة في منتصف الليل ، وصعد في خفة الى الدور العوى ، والمصباح في يده . وكان يبكي منكمس الرأس وهو يصعد الدرج . وتوقف متطلعاً : لقد لاح له مرة أخرى خيال فتاة رقيقة تغنى ، وهي تحمل طفلاً في ذراعيها .

وتجولا خلال الغرف ، التي كانت جميلة يوماً له ، ثم أضحت عارية كئيبة . ان هنا ذكريات كثيرة . ولكنه تملص منها جميعاً ، ولم يعد يذكر الا طفليه ، بو وفلورنس ، في بؤس ، وألم ، وضعف ، وشغف !!! .

وفي الحجرة العتيقة المرتفعة ، حيث كان الفراش الصغير ، شرع يبكي وحيداً منفرداً . ولما طلع النهار ، حبس نفسه في

غرفته مرة أخرى . قم لم يلبث أن هش وسار الى الغرفة في
الغرفة المجاورة . ثم عاد بشئ مخبئ في صدره . وأخذ يتطلع
الى أسفل الباب ويفكر .

كان يفكر في أن الدماء لو انحدرت من اسفل الباب الى البهو
في الخارج ، فأنها سوف تأخذ وقتاً طويلاً حتى تصل الى
هناك ، وحينئذ سوف لا يدرك أهل المنزل الرجل الجريح الا
ميتاً ، أو على عتبات الموت .

أن مستر دمبي كان يفكر في الانتحار !

وفجأة نهض مستر دمبي ، وبجه مرعب ، واخرج الشئ
الذكان قد خبأه في صدره غير أن صيحة أوقفته لحظئذ –
صيحة عالية ، محبة ومرحة – وتلفت مستر دمبي ليجد أبنته
راكعة عند قدميه .

- " بابا ! يا عزيزى بابا ! سامحنى ! لقد عدت
أطلب الغفر راکعة على قدمي . لا أستطيع
أن اكون سعيدة مرة آخر دون الحصول على
عفوك ورضاك " .

سوار متعثراً الى كرسيه . وأحس بها تلف ذراعيها حول
عنقها ، وتضع ذراعيها حول عنقه . وأحس بقبلااتها على
وجهه ، وأحس – يا الله !! أحس بكل ما ارتكبه في حقها بعمق
هائل وألم شديد !! .

" بابا ، يا حبيبتي ، لقد عدوتُ أما ...ولدى طفل سوف يدعو
والتر قريباً بالأسم الذى أدعوك أنا به – ولما وُلد ، ولما عرفت
كم أحبه ، أحسست بخطأى فى تركك . سامحنى ، يا بابا
العزیز !

وما أن التصقت به ، حتى قبلها ، ورفع عينيه قائلاً " اوه يا
الهى سامحنى انا لأننى محتاج لعفوك كثيراً جداً " .

ثم خفض رأسه مرة أخرى واحتضن ابنته ، واخذ يبكى . ولم
يكن هناك صوت فى المنزل لوقت طويلاً جداً ، وظلاً
متعانقين فى ضوء الشمس البهيج ، الذى زحف الى داخل
الغرفة مع فلورنس .

وكطلب ابنته ، ارتدى ملابسه للخروج . وساراً معى فى
خطوات ضعيفة ، وهو يتطلع الى الوراء ، مرتعشاً ، نحو
الحجرة التى حبس نفسه فيها ردىاً طويلاً من الزمن ، حتى
أتيا الى العربة التى كانت تنتظر عند الباب .

وعندئذ بكت مس توكس وبوللى ، اللتان طانت تراقبا كل ذلك
من مخبأهما .

وقالت مس توكس ، ودموع الفرح فى عينيها .

- " وهكذا اضحت الأبنة ، يا بوللى . بعد كل شئ ، هى (
دمبى وولده) حقاً .

الفصل الثالث والثلاثون

(ما قد يذكر قبل الزواج)

بعد أن رأى كابتن كتل فلورنس وطفلها ، وبعد أن ثرث طويلا مع زوجها والتر ، خرج ذات يوم يتمشى . وما أن أنعطف عند ركن الشارع ، حتى وقف فجأة بلاحراك ، وفقد قدرته على الكلام ، حين رأى المشهد الذى يتجه نحوه .

فأمام الجماعة مباشرة كانت تسير تلك المرأى العنيدة العاتية ، مسز ماكستينجر ، وقد شبكت الى صدرها ساعة ضخمة ، عرف الكابتن فى الحال أنها ساعة صديقة مستر بنسبى . وورائها مباشرة كان يسير ذلك البحار الحكيم (أى مستر بنسبى) ووجهه كوجه سجين تعس لا حول له ولا قوة .

وخلفهما ظهر أطفال مسز ماكستينجر الصغار . وخلف كل أولئك سارت سيدتان يلوح على وجهيهما مظهر مخيف من الصرامة والبأس ، وتقودان بينهما رجلاً قصيراً يرتدى قبعة طويلة . وفى الخلف كان هناك غلام بنسبى يحمل المظلات . وكاونوا جميعاً يسيرون فى نظام . كان واضحاً انه موكب من مواكب التضحية والأستشهاد ، وأن الضحية كانت مستر بنسبى .

وأول خاطر عرض للكابتن كان أن يجرى بعيداً ، ولكن الجماعة كانت قد عرفته ، وأدركته .

- " حسنآ " يا كابتن كتل ، مسز ماكستينجر " هذا لقاء مشهود حقآ ! " أننى لا احمل نحو مشاعر سيئة ، يا كابتن كتل . أننى أرجو أن اتقدم الآن الى هيكل الكنيسة بروح طيبة . "

ولم يلتفت بنسبى التعس ذات اليمين أو ذات اليسار ، ولم يتطلع الى عروسه أو صديقه ، بل كان ينظر أمامه مباشرة الى لا شئ .

- " يا كابتن كتل " قالت مسز ماكستينجر " اذا اردت ان ترى صديقك للمرة الأخيرة كوجل أعزب ، فإنه يسرنا أن تأتى معنا الى الكنيسة " ، ثم أردف وهى تشير الى احدى السيدتين فى الخلف " توجد هنا سيدة ، يا كابتن كتل ، تسرها حمايتك " .

وتقدمت السيدة المشار اليها الى الأمام فى الحال ، وأمسكت بالكابتن وهى تأمر بالسير فى صوت خشن قوى ، قائلة أنه لا وقت لديهم يحتمل الأضاعة .

ولم يع الكابتن او يدرك تماماً حديث رفيقته فى بادئ الأمر ، لانشغاله بأمر صديقه المفأجى . ولخوفه على نفسه فى ذات الوقت ، اذ كان يخشى أن يزوج هو أيضاً عنوة وأقتدارآ ، ولكنه ما لبث أن عرف ، بعد أن هدأت اعصابه قليلا ، انها أرملة رجل كان يدعى مستر بوكم .

ولقد لاحظ الكابتن ، طيلة ذات الوقت أن مسز بوكم تراقب العريس باستمرار لئلا يهرب . كما كانت السيدة الاخرى

أيضى ، وزوجها الرجل القصير ذو القبعة الطويلة ، يشتر
كان فى حراسته بشكل ظاهر .

وبذل الكابتن محاولات كثيرة للتحدث الى بنسبى ، غير أنها
فشلت جميعاً . ثم لم يلبث أن وصل الموكب الى الكنيسة .

وهنا وجد الكابتن الفرصة ليهمس فى أذن العريس :

- " جال بنسبى ، هل تفعل هذا الآن على محض أرداتها ؟ "

- " كلا " أجاب مستر بنسبى .

- " ولماذا تفعله اذن ، يا بنى ؟ " سأل الكابتن .

ووقف بنسبى يتطلع الى الأمام بوجه جامد لا يتحرك ، ولم
يلفظ جواباً .

- " لماذا لا تهرب ؟ " سأل الكابتن .

- " وما جدوى ذلك ؟ " اجاب الرجل التعس " أنها سوف
تمسكنى ثانية " .

- " حاول " أجاب الكابتن " تفاعل ولا تبتئس ! أنها الآ
فرصتك . اهرب يا جالك بنسبى ! " .

ولكن بنسبى لم يهرب حينئذ ولم يهرب أبداً ، لان مسز
ماكستينجر تزوجته مباشرة بعد ذلك .

وعاد الموكب مرة أخرى الى حي (برج) حيث كانت هناك
وليمة الزواج في أنتظاره . وسحب الكابتن الجماعة حتى باب
المنزل ، غير انه يلبث أن ولى هارباً دون الدخول . ذلك أن
قلقه أخذ يتزايد من ناحية مسز بوكم ، التي كانت قد تفرغت
لصحبه بعد أنتهاء مراسيم الزفاف ، وشرعت تُبدى به شغفاً
واهتماماً .

الفصل الرابع والثلاثون (الأنعطاف)

- " وهل والدك مريض جداً ، يا حبيبتي فلوى ؟ " قالت سوزان التى كانت قد وصلت للتو مع مستر توتس ، الذى أصبح الآن زوجها .
- " أنه مريض جداً . ولكن ، ما هذا ، يا عزيزتى سوزان ؟ " قالت سوزان ، وهى تلمس ملابسها فى دهشة " أليست هذه هى ملابسك القديمة ، يا عزيزتى ؟ قبعتك القديمة ، وتجعيدات شعرك ، وكل شئ ؟ "
- " يا عزيزتى مس دمبى " قال مستر توتس " سوف أشرح لك الأمر . لقد كانت سوزان تقول دائماً أنه متى عدت الى منزلك فأنها ستأتى اليك فى نفس املابس التى اعتادت أن تخدمك فيها . يا عزيزتى مس دمبى ، أنها سوف تكون وصيفتك مرة أخرى ، ومربيك ، وكل ماكانت لك فى الماضى ، واكثر " .
- وكانت فلورنس فى حاجة الى العون . وحاجة أبيها الى ذلك كانت أقوى وأشد . لقد كان الموت يخف بسريره .
- وكانت فلورنس مع أبيها دائماً . وكان يميزها بوجه عام ، على أن أفكاره كانت كثيراً ما تشرذ بعيداً ، فيهدى ، ويخاطبها كما لو كان ولده قد مات منذ وقت قصير . وكان يحجب وجهه ويبيكى ، ويمد يده النحيلة الى خارج الفراش .

وفى بعض الأحيان كان يصبح " أين فلورنس ؟ لقد افترقت عنها طويلا حتى أننى أكاد لا اعرفها ! "

وظل كذلك أياماً وأسابيع . زأخيراً هداً ، وهو راقد على فراشه ، يتكلم فى صوت خفيض . ثم بدأ بعد ذلك أنه يهتم بفلورنس ويفكر فى تعبها وكثيراً ما كان يهمس لها قائلاً : " اخرجى يا حبيبتي وتمشى فى الهواء الممتع الطلق. اذهبى الى زوجك الطيب القلب "

- " يا عزيزتى " قال والتر ، " يوجد شخص فى أسفل يرغب فى مقابلتك " .

ونزلت فلورنس مع زوجها. وما أن رأى السيد الذى يجلس فى حجرة الجلوس الصغيرة الممتعة . حتى تذكرت ابن العم فينكس واضطربت .

- " يا حبيبتي " قال والتر " لا شئ هناك فى الامر اكثر من هذا " .

سوف تركيبين الى لندن مع هذا السيد ، ومعى ، وتقومين بزيارة فى مكان ما " .

- اذا كان بابا لا يزال نائماً ، فسوف أذهب فى الحال " أجابت فلورنس .

وقطمت بهم العربية حوالى ثمانية أميال ، ثم وقفت أخيراً امام ذلك المنزل فى شارع برووك حيث أحتفل بالزواج الثانى التعس لوالدها . وخرج مستر فينكس وقدم يده لفلورنس .

- " هل ستأتى يا والتر ؟ " سألت فلورنس .

- " كلا . سابقى هنا . لا تخافى . لا شئ يخيف فى الامر يا حبيبتي فلورنس " .

وصعدت فلورنس الدرج المظلم ، وهى ترتعش ، ثم وقفت على باب حجرة الاستقبال . وهنا الى جوار النافذة ، كانت سيدة تجلس الى منضدة ، ورأسها معتمدة على يدها . وأدرات السيدة رأسها .

- " يا للسماء ! " قالت هى " ما هذا ؟ " .

كانت الآلام والكبرياء ، والمشاعر العاصفة قد أضفت ذلك الوجه ، ولكنه كان وجه ادث ، ولا يزال جميلاً ذا رونق وجلال .

وانفجرت فلورنس باكية وهى تصيح من أعماق قلبها " أوه ، ماما ، ماما ، لماذا نتقابل هكذا ! لقد أتيت الآن من عند فراش بابا المريض . نحن لا نفترق الآن ولن نفترق أبداً . اذا كانت تريدين أن أسأله الصفح لك يا ماما ، فسوف أفعل . أننى متأكدة من أنه سيمنحه الآن لو طلبت اليه ذلك " .

ولم تجب ادث بكلمة واحدة .

- " أوه ، صلى الله " صاحبت فلورنس راحة على قدميها
الى جوارها " صلى الله يا ماما لكى يغفر لك هجرتك لبابا ! "

وقال اذت ذراعيها حول رقبتها ، وصاحت قائلة :

- " فلورنس ! يا ملاكى الطاهر ! قبل أن يملكنى عنادى
مرة ثانية وُخرسنى عن القول ، صدقيني ، قسما بروحى ،
أننى بريئة " .

وكانت تبكى بمرارة .

- " ماما " قالت فلورنس " بابا قد فقد ثروته . ولقد كان
على وشك الموت ، وربما لا يشفى حتى الآن . هل هناك أية
كلمة استطيع أن احملها اليه منك ؟ " .

- " هل قلت لى " قالت ادث " انك أصبحت عزيزة لديه ؟ "

- " نعم " قالت فلورنس بصوت مرتعش .

- " قولى له أننى آسفة أننا تقابلنا يوماً ما " .

- " هل أقول له " سألت فلورنس " أنك حزنت لما قاساه
من ألام ؟ " .

- " كلا " أجابت ادث " لن احزن اذا كانت هذه الألام قد
علمته أن ابنته مخلوقة غالية جداً بالنسبة اليه . اذا كان قد
تعلم هذا الدرس ، يا فلورنس ، فهو نفسه لن يحزن لما نزل
به " .

وبدت وكأن غضبها قد ذهب الى غير رجعة ، ثم تجمعت
الدموع فى مآفيها .

- " كلما اشتد حبه لفلورنس " أضافت ادث " قلت كراهيته
لى . أننى حينئذ سوف أحاول أن اغفر له دوره فيما حدث .
ودعيه يحاول هو أيضاً أن يغفر لى دورى فى ذلك . والآن
،وداعاً ، يا حياتى ! .

وضمت فلورنس الى حضنها . وبدت وكأنها تسكب كل ما
لديها من حب المرأة وحنانها دفعة واحدة .

- " عندما تتركينى فى هذه الحجرة المظلمة " قالت ادث ،
" فكرى فى أنك تركتيني فى القبرة . أذكرى فقط ما كنت
عليه يوماً ما . واذكرى أننى كنت احبك " .

وغادرتها فلورنس ، ولم تر وجهها بعد ذلك ، ولكن ذكرى
حبها وقبلاتها ظلت باقية فى قلبها

الفصل الأخير

(النهاية)

أن مستر دمبى الآن رجل أبيض الشعر ، يحمل وجهه آثار
ثقيلة الهموم والمعاناة : غير أنها آثار زوبعة مرت الى غير
رجعة ، وسطع فى أثرها مساء واضح المعالم . أن الخطط
والأفكار الطموحة لم تعد تؤرقه لقد انحصر فجره وزهوه فى
ابنته وزوجها .

وأن أيام الخريف تشرق الآن ، وكثيراً ما يرى الناس ، على
شاطئ لبحر ، سيده صغير السن ، ورجلاً أبيض الشعر –
ومعهما ، أو بالقرب منهما ، يوجد دائماً طفلان " ولد وبنت "

ويسير الرجل العجوز ذو الشعر الأبيض مع الولد الصغير ،
ويلاحظه ، ويراقبه ، كما لو كان هو غرض حياته كله . وحين
جلس هذا الطفل الى جوار الجد ، ويتقرس فى وجهه ، ويلقى
عليه بالأسئلة التى تشغل عقله الصغير ، كثيراً ما يتناول الجد
يده النحيلة ، ويبقيها فى يده ، وينسى أن يجيبه . وعندئذ يقول
الطفل :

" ماذا يا جدى ، ! هل قد أصبحت أنا شبيهاً بعمى الصغير
السكين ! " .

- " نعم ، يا بول . ولكنه كان ضعيفاً أما انت فقوى جداً "

وكلما سار سوياً ، الجد والطفل ، سارت خلفهما قصة الحب الشديد بينهما ، وتبعتهما فى كل مكان . ولكن ليس غير فلورنس ، من يعرف مقدار حب الجد العظيم للبنت الصغيرة . أن قصة هذا الحب لايتداولها الناس ، لأن الرجل العجوز يكتمها فى قلبه . أنه لا يحتمل أن يراها جالسة بمفردها . وهو يتسلل فى خفة ليلا ليتطلع اليها فى نومها ، ويسره جداً ان تاتى وتوقظه فى الصباح . أنه مغرم بها جدى ، ويظهر لها أروع آيات الحب حين لا يكون أحد قريباً منهما . وعندئذ ، تقول الطفلة أحياناً :

- " يا جدى العزيز ، لماذا تبكى وأنت تقبلنى ؟

فيجيبها قائلاً فحسب :

- " فلورنس الصغيرة ! يا فلورنس الصغيرة " .

ثم يزيح فى رقة وحنان خصلات الشعر التى تحجب عينيها .